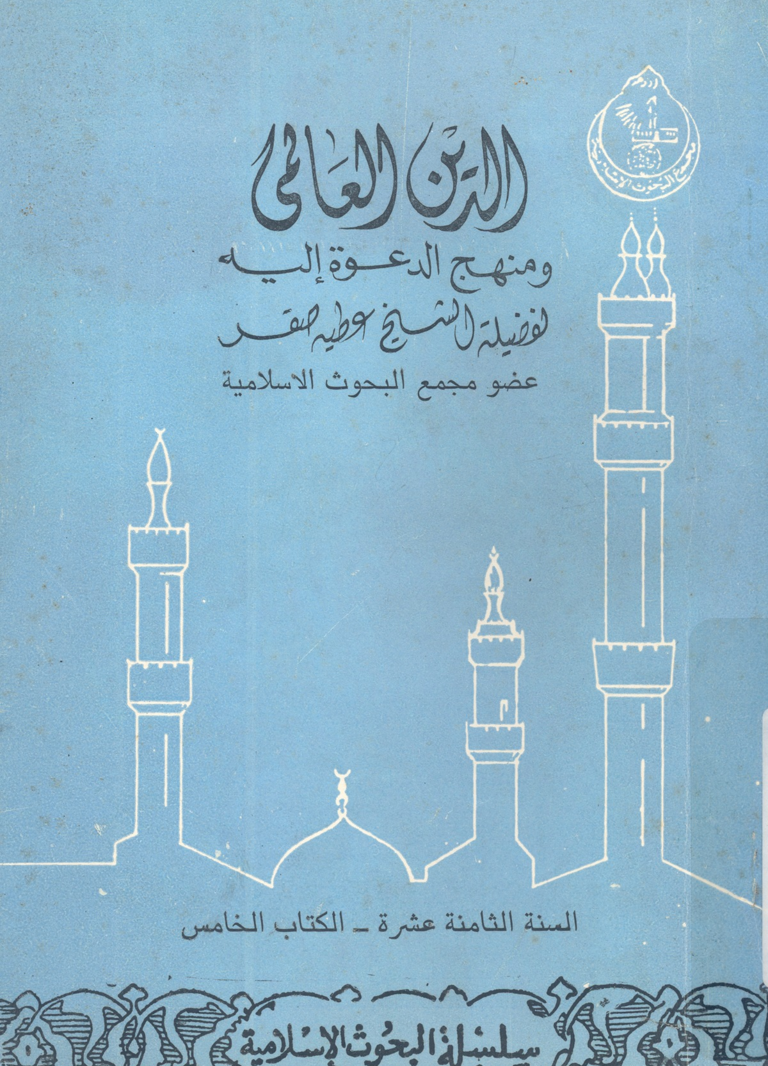


الدين العالمي
ومنهج الدعوة إليه
لفضيلة الشيخ عطيه صقر
عضو مجمع البحوث الاسلامية
السنة الثامنة عشرة - الكتاب الخامس
سلسلة البحوث الإسلامية



الدين العالمي

ومنهج الدعوة إليه

لفضيلة الشيخ عطية صقر
عضو مجمع البحوث الاسلامية

سلسلة البحوث الاسلامية

السنة الثامنة عشرة ـ الكتاب الخامس

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

بســــم الله الرحمن الرحيم

تقــــديم

للأستاذ الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فنقدم للقراء الطبعة الثانية من كتاب :

« الدين العــالمى ومنهج الدعوة اليه »

الذى يتحدث عن عالمية الدين الاسلامى وصلاحيته لكل زمان ومكان ، على الرغم من أن الرســول الذى أرسل به عربى ، والكتاب الذى أنزل عليه أنزل باللسان العربى ، فهو عليه الصلاة والسلام كما قال عنه ربه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، والكتاب كما قال عنه سبحانه : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبــده ليكون للعالمين نذيرا » .

وهذا الكتاب الذى نقدمه يؤكد هذه الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك ، وذلك من واقع النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية ليزداد المؤمن ايمانا ، ومن واقع العوامل الذاتية التى رشحت هذا الدين ليكون دينا عالميا ، وليكون حجة الله على من يتطلعون الى دين يلائم الطبيعة البشرية ، ويساير تطور الحياة الفكرية والعملية ،ومن الواقع التاريخى الذى أثبت جدارة الاسلام بهداية البشرية الى أقوم الطرق ، حيث تقبلته كل الأجناس ، وعاش فى كل البيئات ، وما يزال غضا طريا على الرغم من تعاقب الأجيال .

والكتاب ينبه الى خطر الجبهات التى تحاول أن تقلص من ظله ، وتحد من مده ، وسنرى من خلالها أن بعض المعاصرين يثيرون من الشبهات ما أثاره الأعداء منذ مئات السنين ، وتكاد الألفاظ التى تجرى على ألسنتهم تطابق تماما ما قاله أولئك المغرضون .

وهو إذ يبرز أن الاسلام هو الدين العالمى الوحيد الذى يلبى حاجة الانسانية فى هذا العصر وفى جميع العصور ، لم ينس أن يصنع المنهج الصحيح للدعوة اليه ، من واقع النصوص وهدى السلف وتجارب العصر ، حتى لا يقحم نفسه على الدعوة من ليس أهلا لها ، وحتى لا تشوه الصورة النقية للاسلام من سلوك بعض من لا يحسنون الدعوة اليها .

والكتاب فى صورته المصغرة المنتقاة من مؤلف ضخم فى هذا الموضوع ، شاهد صدق من الشواهد الـكثيرة على أن الأزهر الذى ظل منارة الثقافة الاسلامية أكثر من ألف عام ، لم يغب عن الساحة مطلقا ، فهو بجميع هيئاته حاضر يتفاعل مع الأحداث ، ويشق طريقـــه فى الاصلاح بكل ثقــة وصــبر ومصابرة راجيا من الله المثوبة ، وداعيا للأمة الاسلامية أن يلهمها الله الرشد حتى تعود الى الدين الذى يخرجهم من الظلمات الى النور ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » وبالله التوفيق ،،،

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

أ٠ د٠ عبد الفتاح بركة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا يدع عباده يسيرون فى الحياة على غير هـــدى ، ولا أن يتركهم لعقولهم التى قد تغلبها الأهواء فتضل وتغوى ، فأرسل اليهم رسلا حدد مهمتهم بقوله : « رســلا مبشرين ومنذرين » (١) ، وبين حكمة إرسالهم بقوله : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٢) ، وكان فى كل جماعة من الجماعات البشرية الهامة من يرشدها كما قال سبحانه : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »(٣) ، وكان هؤلاء المرشدون من الكثرة بحيث قال الله فيهم: « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين » (٤) ، على ما تفيده «كم» الخبرية من التكثير ، وكفانا مئونة عدهم فقال:

---

(١) ، (٢) سورة النساء : ١٦٥

(٣) سورة فاطر : ٢٤

(٤) سورة الزخرف : ٦

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » (١) ، وبين المقصد الأكبر من بعثهم فقال : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (٢) ، فقد وجهوا اهتمامهم أولا الى إصلاح العقيدة ثم الى إصلاح ما يرونه فى حاجة الى إصلاح من السلوك .

ومما لا شك فيه أن البشرية فى تغير دائم ورقى مستمر ، وأن المشاكل تزداد تعقدا كلما تعقدت الحياة وكثرت مطالبها ، ولهذا كانت النظم والشرائع التى جاءت بها الرسل فى تغير وتطور ، ما يصلح منها لجماعة لا يصلح لأخرى كما قال سبحانه : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (٣) .

والقرآن الكريم حين تحدث عن هذه الرسالات تحدث عنها فى إطار الخصوصية للأمم التى جاءت اليها ، فكل رسالة لأمة لا تكلف بها أمة أخرى ، وكل شريعة ينتهى عهدها بانتهاء من جاء بها ، كما قال سبحانه : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » (٤) .

(١) سورة غافر : ٧٨
(٢) سورة النحل : ٣٦
(٣) سورة المائدة : ٤٨
(٤) سورة الصف : ٦

وكانت الإنسانية من عهد بعيد تستعد لطور جديد من الرقى الفكرى والاجتماعى ، والى رسالة تتناسب مع ما بلغته من نضج ورشد ، كما كان العـالم قبيل ظهور الإسلام فى حاجة ماسة الى من يأخذ بيده ممـا ارتكس فيه من ضلال ، والى رسول تقوم دعوته على الأصول الانسانية العامة التى تتخطى حواجز الجنس والبيئة والزمن والفوارق العـارضة الأخـرى ، وعلى الاصلاح الشامل الذى يأسو كل جراح ، ويروى كل ظمأ ، ويحل كل عقدة ، ويعالج كل مشـكلة ، وعلى تنظيم دقيق يساعد كل حى على أن يأخذ حقه فى الحيـاة فى عدالة تامة ومساواة شاملة ، وحرية كاملة ، وفى ظـــل من الأخوة والرحمة والمحبة والتعاون ، وعلى منهج يصحح العقيدة ، ويقوم الفكر ، ويصلح الفـاسد من السلوك ، ويضع قواعد الاجتماع ونظام الحكم على أساس سليم . فكانت رسالة الاسلام ، وكان محمد ﷺ ، كانت رسالة الاسلام العامة الخالدة ، الصالحة لـكل زمان ومكان ، وكان محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وسأحاول فى هذا البحث أن أجلى ـ فى اختصار بالغ ـ عالمية الدين الاسلامى ، وكيف انتشر نوره ، واستفاد العالم من هدايته ، وما يجب علينا إزاء الدعوة اليه

فى كل أقطار العالم ، تحقيقا لقوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » (١) .

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن يوفقنا للعمل بما فيه ، إنه سميع مجيب ،،،

عطية صقر

---

(١) سورة الفتح : ٢٧

معنى عالمية الدين

الدين هو الوضع الإلهى الذى اختاره الله لعباده ليصلحهم فى الحياتين ، ويكون عالميا بعدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية ، وبعدم انحصار تطبيقه فى إقليم خاص أو بيئة معينة ، وبامتداد هدايته أزمانا طويلة تتجاوز العصر الذى بدأت فيه ، بمعنى أن يكون الدين صالحا لكل جنس وكل جيل ، أو لكل زمان ومكان ، أو بمعنى آخر أن يكون الدين شريعة الإنسان من حيث هو إنسان ، بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة ، التى لا تدخل فى ماهية الإنسان كإنسان ، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية فى أى دين .

فهو لا يكون دين جنس تميزه فصيلة الدم ، أو سمة اللون ، أو ظاهرة اللغة ، بل دينا لا يفرق بين العربى والعجمى والحبشى والرومى ، ولا بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، ولا يمنع من أن يستظل بلوائه متكلم بأية لغة من اللغات ، وهو لا يكون دينا محليا تحده حدود جغرافية واعتبارات إقليمية ، بل يصلح لكل البيئات وكل الأجواء ويتناسب مع كل بقعة زراعية وصناعية وتجارية ، برية وبحرية ، بدوية

وحضرية على اختلاف المستويات المادية والاعتبارات الأخرى .

وهو لا يكون دينا عالميا إلا اذا صحب الانسان فى جميع أزمانه المتطورة ، وعصوره المتلاحقة ، بمعنى أن يكون خالدا لا يعتريه نسخ أو زوال ، ولا عقم أو جمود ، موفيا بجميع مطالبه المتنوعة المتجددة فى الميادين السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وفى كل الميادين التى يزاول فيها الانسان بعقله الواسع نشاطه الكامل من كل نوع .

ولا يوجد دين من الأديان السماوية أو الوضعية فيه هذه المواصفات التى تجعله عالميا إلا دين الاسلام، فالدينان السماويان الكبيران وهما اليهودية والنصرانية ، كل منهما خاص بقومه وبعصره .

فاليهودية لا تصلح أن تكون دينا عالميا لأنها مرتبطة بشعب معين تعرض للتشريد غير مرة ، تقوم حياته على العصبية الحادة والعنصرية الجامحة ، ذلك أنهم يحاولون أن يستأثروا بعبادة إله وصفوه بأوصاف خاصة ، ويعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن غيرهم أميون ، ويستبيحون من غيرهم ما لا يستبيحون من أنفسهم كالربا ، فهل مثل هذا الدين يصلح أن يكون عالميا ؟ .

على أنه لا يوجد نص فى التوراة يتحدث عن هذه العالمية ، فهى دين أسرة بشرية واحدة هى بنو إسرائيل وهم يكرهون أن يدخل بينهم غير عنصرهم . يقول المسيو (جوليان ويل) حاخام باريس فى كتابه (اليهودية) : يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول فى عهد ابراهيم ثلاث مرات ، لافتا نظره الى الصعوبات التى سيصادفها ، والتكاليف الشاقة التى سيتحملها ، والأخطار التى سيتعرض لها ، فاذا أصر على طلبه وتحقق الربانى أن الدواعى التى تحدوه للتهود طاهرة ونزيهة فيمكنه أن يقبله فى حظيرة البيعة . ثم قال : هذا التحفظ فى أمر طالبى التهود دعت اليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذى لا يقصد به إلا الإسرائيلى بأدق معانى هذه الكلمة ، وأوجبه كذلك مافى اليهودية من التكاليف الكثيرة التى يستدعى العمل بها نكران الذات والأخشيشان والثبات والشجاعة وأحيانا البطولة أيضا (١) .

وغاية ما يتمسك به اليهود فى ادعاء عموم رسالتهم ما ورد فى كتابهم من أن بنى إسرائيل سيكونون محكمين للأمم ، ومربين للشعوب القوية ، وأنه ـ قبيل قيام الساعة ـ سيتفق العالم كله على عبادة الله اتباعا

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد ٨ ص ٢٤١ ، ومجلد ١٠ ص ٤٨٧ .

لديانة بنى إسرائيل ، إذ يكونون قد عقدوا مع الخالق عهدا جديدا ، فيضطر الناس الى القيام عليه .

لكن هذا القول يثبت أن دينهم لا يصلح الآن ، ولا فى عهده الأول لقيادة البشر عامة ، بل سيكون ذلك ، على زعمهم ، قبيل قيام الساعة ، على فرض صحة هذه النصوص . وأنى لها أن تكون صحيحة وقد حكم القرآن بأنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وبدلوا كتاب الله ، وغيروا معالمه ؟ لقد استبدلوا بـه (تلمودا) مملوءا بالتعاليم الشاذة القائمة على الفساد والإفساد ليبسطوا نفوذهم على العالم كله بأية وسيلة تكون .

ولو نظرنا الى المسيحية لرأينا أنهـا عنـد تقرير العقيدة لا تعتمد على الدليل المقنع ، بل توجب أن تؤخذ بالتسليم المطلق ، والعقول فى تطورها جريا على سنن الله الكونية ، تأبى أن تظـل حبيسة التقليد أو التلقين .

كما أنها تنادى بالزهد البالغ والرهبانية الشديدة، وتحرم الأغنياء أن يدخلوا ملكوت السموات ، ويعقب على هذا أحد كتابهم وهو « الدكتور نظمى لوقا » فى كتابه « محمد ، الرسالة والرسول » فيقول : وهذا السلوك لا يصلح لـه كل قلب ، ولم تنضـج البشرية

نضوجا تاما متساوقا ، ليمكنها أن تتلقى هذا التعليم، فلا يصلح لذلك إلا الأفذاذ من النـــاس • أما السواد الأعظم فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجحود ولا مردود (١) •

وفى المسيحية تسامح متناه وعفو واسع ، ومن المعلوم أن امتثـــال هذه الأوامر يتعـــذر على غير الأذلة المستضعفين من الناس ، وقد يكون من أكبر المفـاسد بإغراء الأقوياء بالضعفاء الخاضعين •

وكانت هذه السياسة صـالحة لتقاوم بهـا عوامـل التنافس والصراع المادى اليهودى ، ولا تصلح لعمران يراد له أن يطمئن على حقوقه ومقدساته •

على أن سيدنا عيسى عليه السلام بدأ دعوته ببنى إسرائيل خاصة ، كما جاء فى إنجيل متى وهو يقص محاورة المرأة الكنعانية لعيسى ، وهى غير إسرائيلية، فأجاب عيسى وقال : لم أرسل إلا إلى خـراف بنى إسرائيل الضـالة (٢) • فليس فى المسيحية نص على عالميتها ، وما نشطت الدعوة اليها إلا بعد اعتناق الرومان لها ، وقد بقيت نحو ثلاثة قرون محصورة فى طوائف مبعثرة ، ولم تقم لها دولة الى أن تولى

---

(١) ص ٥٧ ــ ٥٩

(٢) اصحاح ١٥ : ٢١ ــ ٢٩

الامبراطورية الرومانية (قسطنطين الأول) وكانت أمه قد ربته على المسيحية فحمل قومه عليها ، وأمر بتحطيم الهياكل والمعابد الوثنية ، واعتبر النصرانية دينا رسميا للامبراطورية (٢٧٤ ـ ٣٣٧ م) . ومن ذلك الحين قام النصارى بإرسال بعثات التبشير الى البلاد النائية .

واذا كان هذا شأن الدينين الكبيرين بعد الاسلام ، فأولى بعدم العالمية الأديان الأخرى .

الاسلام هو الدين العالمى

هذه قضية لابد لها من أدلة تدعمها وشواهد تثبتها، وسأحاول أن أجعلها فى مجموعات ثلاثة : مجموعة الأدلة النقلية ، ومجموعة الأدلة الذاتية ، ومجموعة الأدلة الواقعية .

وأعنى بالمجموعة الأولى ، الأدلة الواردة فى الكتاب والسنة من قول النبى ﷺ وفعله ، وهى التى يقتنع بها المؤمنون المصدقون بهما ، وهؤلاء فى غير حاجة الى إيرادها لأن العقيدة الدينية لا تـدع فى قلوب المؤمنين مجالا للشك فى هذه القضية ، وإلا كان كفرا. ولكننا نوردها لنزيدهم إيمانا ، وليعرفها من يجهلها، ولنرد بها على من طعنوا فى الاسلام بأن عالميته من اختراع أتباعه ، لا من نصوصه .

ومجموعة الأدلة الثانية أقصد بها المقومات الأساسية والعوامل الرئيسية التى اشتمل عليها الدين ، وهذا الأسلوب فى الاستدلال يعتمد على فقه الموضوع وتحليل نصوص الدعوة ، وتلمس النواحى المشرقة الحية فى مبادئها ، وربطها بواقع الحياة وسنن الكون ، وبيان مقدار ملاءمتها للسلوك الانسانى فى جميع أطواره ،

وعلى مدى عصوره وأزمانه ، وهذه المجموعة من الأدلة القائمة على هذا المنهج تفيد الباحثين من الأجانب عن الاسلام ، وتفيد فى الرد على المتشككين فى صلاحيته لقيادة البشرية قيادة رشيدة .

والواقع التاريخى الذى جعلناه دليلا على عالمية الدين يعتبر تطبيقا لمبادىء هذه الدعوة وبيان حسن إنتاجها فى الحقل الذى زرعت فيه ، وهى دليل صدق على فاعلية الأدلة الذاتية الموجودة فى المجموعة الثانية ، وهذه الأدلة كلها متضامنة فى إثبات صدق هذه القضية ، وهى عالمية الدين الاسلامى ، وإليكم الحديث عن هذه الأدلة بنوع من التفصيل .

الأدلة النقلية على عالمية الدين الاسلامى :

١ ـ من القرآن . جاءت آيات مكية تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الاسلامية من أيامها الأولى، وترد على من زعموا أن عالمية الاسلام فكرة لم تكن عند محمد حين أرسل به ، بل جاءت فى عهد خلفائه الذين تاقوا الى القتال والتوسع بالفتوح ، كما ردد ذلك « وليم موير » فى كتابه عن « الخلافة » (١) ورددە

---

(١) تاريخ للدعوة لأرنولد ص ٤٩ ، ٥٠ .

أيضا « ساوندوز » المحاضر الأول للتاريخ فى جامعة كنتر برى بزيلندة الجديدة ، ونشرته مجلة التاريخ المعاصر فى مارس وابريل سنة ١٩٦١ (١) ومن هذه الآيات ما يأتى :

١ ـ قوله تعالى : « وما هو إلا ذكر للعالمين »(٢) .

٢ ـ قوله تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين »(٣) .

٣ ـ قوله تعالى : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » (٤) .

٤ ـ قوله تعالى : « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » (٥) .

ومعنى من كان حيا ، كل من ثبت له الحياة ، ولفظ « من » من صيغ العموم .

٥ ـ قوله تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (٦) .

---

(١) مجلة الأزهر مجلد ٣٣ ص ٢٢٠

(٢) سورة القلم : ٥٢

(٣) سورة التكوير : ٢٧ ، يوسف ١٠٤ ، الأنعام ٩٠

(٤) سورة الأعراف : ١٥٨

(٥) سورة يس : ٦٩ ، ٧٠

(٦) سورة الفرقان : ١

٦ ـ قوله تعالى : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » (١) .

ومعنى « من بلغ » من وصل حد التكليف من أى جنس ولون ، أو من بلغه القرآن من غير المخاطبين به عند نزوله .

٧ ـ قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٢) .

٨ ـ قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » (٣) .

فأم القرى هى مكة ، ومن حولها يشمل كل الناس غير المقيمين فيها ، فكل حى على وجه الأرض مقيم حول مكة ، فهى مركز الدائرة ، وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمى .

٩ ـ قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤) .

هذه هى معظم الآيات المكية وتضاف اليها الآيات المدنية التالية :

---

(١) سورة الأنعام : ١٩
(٢) سورة سبأ : ٢٨
(٣) سورة الشورى : ٧
(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧

١ ـ قوله تعالى : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا » (١) ٠

فالدعوة فيها موجهة الى اليهود والنصارى وهم أهل الكتاب والى غيرهم من العرب الذين يطلق عليهم الأميون ٠

٢ ـ قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ٠٠٠ » (٢) ٠

٣ ـ قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » (٣) ٠ فكل انسان لا يدين بدين الاسلام لا يقبل منه ما دان به ، فهو دين الجميع ٠

٤ ـ قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (٤) ٠

(ب) من السنة ، الى جانب السنة الفعلية حين بلغ الرسول الدعوة جاءت النصوص القولية الآتية : ـ

١ ـ (كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحمر وأسود) (٥) ٠

---

(١) سورة آل عمران : ٢٠

(٢) سورة آل عمران : ٦٤

(٣) سورة آل عمران : ٨٥

(٤) سورة التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٧

(٥) رواه البخارى ومسلم ٠

وجاء بروايات مختلفة ، فى بعضها (وبعثت الى الناس عامة) ، (وبعثت الى الخلق كافة) .

٢ - (إنى رسول الله إليكم خاصة ، والى النـاس كافة) (١) ، وكان ذلك فى إحدى الخطب الأولى بمكة.

٣ - فى كتاب النبى ﷺ الى جيفر وعبدا بنى الجلندى ملكى عمان قوله (فإنى رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) (٢) .

٤ - فى حديث البراء بن عازب عند حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ، وقد اعترضت المسلمين صخرة وهم يحفرون جاء قوله (فاشتكينا ذلك للنبى ﷺ ، فجاء وأخذ المعول فقال : بسم الله . ثم ضربه فنشر ثلثها). وفى رواية : (فخرج نور أضاء ما بين لابتى المدينة وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأرى قصورها الحمر الساعة من مكانى هذا . قال : ثم ضرب الثانية فقال : بسم الله فقطع ثلثا آخر ، فقال: الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض وفى رواية : لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكانى هذا . وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها . ثم ضرب

(١) رواه البخارى وكتب السيرة .

(٢) المواهب للقسطلانى ج ١ ص ٢٢٥

ثالثة وقال : بسم الله ، فقطع الحجر وقال : الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر باب صنعاء)(١)

قال ابن اسحق : وحدثنى من لا أتهم عن أبى هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار فى زمان عمر وزمان عثمان من بعده : افتتحوا ما بدالكم ، فوالذى نفس أبى هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها الى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمدا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك . هذا وقد كان المرتابون يقولون عن الرسول : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا . وفيهم قال الله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » (٢) .

٥ ــ عن عدى أن النبى ﷺ قال له : (ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى) قلت : كنوز كسرى ابن هرمز ؟ قال : (كنوز كسرى بن هرمز) . وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز) (٣) .

---

(١) رواه أحمد والنسائى باسناد حسن .

(٢) الزرقانى على المواهب ج ٢ ص ١٠٩ ، روى بعضه البخار.. عن أبى هريرة .

(٣) رواه البخارى .

٦ ـ (إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحما) أو قال (ذمة وصهرا) (١) .

فالأحاديث المبشرة بالفتح تدل على عالمية الدين الاسلامى وأنه سينتشر فى هذه الأصقاع وغيرها .

ومن الأدلة على خلود الرسالة ودوامها الى آخر الدنيا ما يأتى :

١ ـ قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٢) .

٢ ـ قول النبى ﷺ : (مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ! ! فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين) (٣) .

٣ ـ قوله أيضا : (وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون) (٤) .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة الأحزاب : ٤٠ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) رواه مسلم .

٤ ـ قوله لعلى : (أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى) [١] .

وقد بلغ النبى محمد ﷺ الدعوة بصفتها العالمية على ما سيأتى بيانه .

الأدلة الذاتية أو العوامل الأساسية لعالمية الدين الإسلامى : ـ

إن الأدلة الذاتية على عالمية الدين الاسلامى كثيرة، وقد تعرض الباحثون للحديث عنها ، وعنى بعضهم بمجموعة خاصة لأهميتها فى نظرهم ، وقد لخص كثيرا منها المرحوم « محمد فريد وجدى » فقال فيما قال : إن المقومات الأساسية الخالدة للاسلام هى : أنه دين الفطرة وأنه قائم على العقل والبرهان ، وأن هناك أصولا أولية يتألف منها دستور علمى يوجه الى ينابيع الحكمة وهى تنحصر فى هذه الكليات التى أجمعت عليها كل فلسفات العالم ، وهى : دوام النظر والتفكير فى الوجود إجمالا ، وفى الكائنات التى فيه تفصيلا ودرس أحوال الأمم والاعتبار بها ، وتنور نواميس الاجتماع من خلالها ، والاستهداء بالأعلام الإلهية المنصوبة فى الوجود لهداية السالكين الى الحقائق

---

(١) رواه مسلم .

الخالصة من الشوائب ، والتجرد من جميع الصبغ الوضعية ومن الهوى فى الحكم على الأشياء ، والاجتهاد فى تحصيل العلم حيث كان ، وعند أية أمة وجد ، والأخذ بالأحسن من كل شىء ، والعمل بمبدأ حرية البحث وعدم الاستخذاء للتقليد ، وعدم الجمود على شىء والجرى على سنة التجديد ، استبقاء للتناسب بين أهله وبين كل جديد ، واعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال الذى قدره الخالق للانسان فى هذا العالم، واعتبار وحدة الإنسانية وأن الناس ما انقسموا الى أمم وشعوب وقبائل ليتخالفوا ويتناكروا ، ولكن ليتعارفوا ويتحابوا ، وأن باب الاجتهاد فى الدين وفى الأحكام مفتوح الى يوم القيامة ، لا تختص به طائفة ولا تستأثر به أسرة ٠

هذه هى الأصول الأساسية فى الاسلام ، وكلها كما ترى أصول حاصلة على إجماع أهل العلم والفلسفة فى العصر الحديث ، وهى مع هذا أصول خالدة قابلة للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وفى كل أمة من أمم الأرض كتب لها السمو وطول البقاء ٠ فهل نعجب بعد هذا البيان من قولنا : إن تعاليم الاسلام خالدة خلود النواميس الطبيعية وأنها تصلح لكل زمان ومكان ؟(١)

---

(١) مجلة الأزهر : مجلد ٩ ص ١٤٥ ــ ١٤٨

هذا هو كلام بعض مفكرى الاسلام فى القواعـــد الأساسية للدين العالمى ، وفلاسفة الغرب ومن يحاولون البحث عن دين جديد للبشرية عامة ، وضعوا قواعد لهذا الدين الذى أسموه « الدين الفطرى أو الطبيعى». واعتبروها نموذجا عاليا لكل دين من الأديان ، يقول أحد كبار أشياعها وهو الفيلسوف « كارو » فى كتابه « البحوث الأدبية على العصر الحاضر » : أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها ، وهو متميز عن العوالم الكونية وعـــن النوع الانسانى ، ووجود روح للانسان متصفة بالإدراك والحرية ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بارادتها أن تطهر هـــذا الجثمان وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله باخلادها الى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ووضع الحرية الخلقية، التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة وأخـــيرا الاعتراف بناموس الترقى ولكن بدون فصل ترقى الانســـان فى مدارج

السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة (١) .

ويقول الفيلسوف « كانت » : الديانة الحقة الوحيدة هى التى لا تحتوى إلا على قوانين ، أعنى قواعد صالحة للجرى عليها ، نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية (٢) .

لقد اضطر هؤلاء المفكرون الى اقتراح الديانة الطبيعية لأنهم لم يجدوها فى الديانات القائمة التى تعتمد فى الكثير من مسائلها على الشروح والتأويلات التى تعمل فيها الأهواء عملها ، ولا تتفق ومقررات العلم ، ولا تساير التطور وحاجات البشر فى قطاعاتها المختلفة ، ولو أنهم نظروا بحق فى الدين الاسلامى المأخوذ من منابعه الصافية لوجدوا فيه أسمى دين يريدونه لإسعاد البشرية فى الحياتين .

هؤلاء الناس يريدون أدلة على صدق الدين من الدين نفسه ، وعلى صلاحيته للعالمية من مبادئه الأساسية . وكل ما يريده هؤلاء وأحسن منه وأكثر موجود فى الدين الاسلامى ، ولو شئنا لأتينا بكل الأدلة على ما وضعوه من مبادىء ، وكان معنى ذلك هو الحديث عن الدين

---

(١) مجلة الأزهر : مجلد ٨ ص ١٥١ ومجلد ١١ ص ٢٩٣

(١) مجلة الأزهر : مجلد ١٠ ص ٢٩٤

كله أو معظم ما فيه ، وليس مجاله هنا فحسبنا من ذلك إشارات خفيفة لبعض ما جـــاء فى الاســلام من هذه المبادىء لنبرهن به على عالميته الأصيلة الذاتية .

(ا) إن عالمية الدين ، كما قدمنا ، تكون إذا كانت شريعته موضوعة لصالح الانسان من حيث هو انسان، ومعنى هذا أن تكون شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وقد قال الله تعالى فى شـــأن الاسلام : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .

وقال ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهــودانه أو ينصرانه أو يمجســانه كمــا تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ـ تامة الخلق ـ هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ـ مقطــوعة الأذن أو الأنف أو ناقصــة الخلق ـ ثم يقول أبو هريرة راوى الحديث : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » (٢) .

وقال أيضا « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء ،

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) رواه البخارى .

فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » أى حولتهم (١) .

الفطرة المذكورة فى الآية والحديث هى الجبلة والطبيعة والخليقة الانسانية الجامعة بين العالمين المادى والروحى ، والمستعدة لمعرفة عالم الغيب والشهادة ، وما أودع فيها من غريزة التدين المطلق ، الذى هو الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق قوى الكون السنن والأسباب التى قام بها نظام كل شىء .

والاسلام قد راعى الفطرة فى بناء التكاليف عليها بحيث لا تكون مصطدمة معها ، أو مهملة لمقتضياتها المادية والروحية ، وفى تقرير الأدلة وسلوك السبل للدعوة وغرس المبادىء ، كل ذلك كان مستوحى من الفطرة ومستخدما إياها فى هذا الغرض النبيل .

ففى مبادىء الاسلام ما يشير اليه قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٢) . وقول النبى ﷺ : « إن لبدنك عليك حقا ولربك عليك حقا » (٣) ، وغير ذلك من النصوص والتشريعات المراعية لطبيعة النفس وحاجات الجسم

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة القصص : ٧٧

(٣) رواه البخارى .

ومتطلبات العقل ، وفى الدعوة كانت أساليب الترغيب والترهيب ، واستعمال وسائل الإيضاح وعوامل التشويق ، وترويض النفس بالصبر على البلاء والشكر على الرخاء ، وبيان أثر القدوة والاستهواء ومراعاة حكم البيئة وعوامل الوراثة وما الى ذلك .

وبهذه الميزة كان الاسلام ملائما لجميع الأجناس البشرية ، فالفطرة الأصيلة واحدة ، وتقبلته النفوس على اختلاف مستوياتها ، ومتمشيا مع مطالب الحياة بالقدر الذى يصلحها ويجعل النشاط فيها ينتج انتاجا مثمرا مفيدا .

(ب) ومن قيام الاسلام على العقل وتكريمه له نرى أن معجزته الكبرى عقلية وهى القرآن الكريم ، كما يقول النبى ﷺ : « ما من الأنبياء من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (١) .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الى استعمال العقل ، فقد تكرر كثيرا قوله تعالى « أفلا تعقلون ».

---

(٤) رواه البخارى ومسلم .

وقال : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » (١) . وقال : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » (٢) . وحرم الاسلام التقليد فقال تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا ، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (٣) .

ونهى عن التعصب للرأى ، لأنه اتبــاع للهوى فقال تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبــع أهواءهم » (٤) .

كما نهى عن اتباع الظن ، لأنه لا تقوم به حجة ، فقــال سبحــانه : « إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » (٥) .

وطالب بالدليل والبرهان فقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٦) .

وامتلأت آيات القرآن بالأدلة الكونية والنفسية فقال

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٥
(٢) سورة الحشر : ٢
(٣) سورة البقرة : ١٧٠
(٤) سورة المائدة : ٤٩
(٥) سورة النجم : ٢٨
(٦) سورة البقرة : ١١١

سبحانه « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألبـاب » (١) ، وقال « وفى الأرض آيات للموقنين • وفى أنفسكم أفلا تبصرون»(٢).

وبناء على احترام حكم العقل لا توجد حقيقة دينية مخالفة لحقيقة عقلية ، ولا يوجد نص فى القـــرآن والسنة يتعارض فى حقيقته مع حكم العقل ، وإن كان هناك تعارض فهو فى ظاهر النص ، ويجب أن يفهم على ضوء العقل ، ويؤول بما يوافقه .

وفى احترام الاسلام للعلم لا نرى دينا من الأديان يدانيه فى هذا المقام ، والنصوص على ذلك أشهر من أنتذكر « قل هل يستوى الذين يعلمون والـــذين لا يعلمون » (٣) ، « إنمـــا يخشى الله من عبـــاده العلماء » (٤) ، « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٥) .

(حـ) وفى مجال الحريات جعلهـا الاســلام عنوانا لتكريم الانسان الذى قال الله فيه : « ولقد كرمنـــا

(١) سورة آل عمران : ١٩٠

(٢) سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١

(٣) سورة الزمر : ٩

(٤) سورة فاطر : ٢٨

(٥) سورة المجادلة : ١١

بنى آدم » (١) . إنه قدس العسرية بكافة ألوانها وفى مجالاتها الحيوية المنتجة ، فلا رق ولا تحكم ولا استبداد ، قال تعالى : «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» (٢) ، وقال : « وأمرهم شورى بينهم » (٣).

وقال عمر رضى الله عنه : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ؟ وهو بهذا التكريم القائم على احترام الحريات كان أهلا لتحمل المسئولية، والمخاطبة بالتكاليف دون سائر المخلوقات ، قال تعالى: « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » (٤).

(د) وفى وفاء التشريع بكل القطاعات ، نرى أن الاسلام قائم على تنظيم جميع العلاقات ، بين الانسان وبين الله ، وبينه وبين الناس ، وبينه وبين نفسه ، فى المجال الاقتصادى والخلقى والثقافى والسياسى وسائر المجالات ، مصداقا لقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام

---

(١) سورة الاسراء : ٧٠
(٢) سورة البقرة : ٢٥٦
(٣) سورة الشورى : ٣٨
(٤) سورة الأحزاب : ٧٢

دينا » (١) . وقوله : « ونزلناعليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (٢) .

ومما يدل على شمول الهداية للنواحى المادية والأدبية ، الدينية والدنيوية ، الروحية والبدنية قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (٣) ، فهو دين المدنية والحضارة الصحيحة بكل مظاهرها وألوانها الهادفة الى صلاح البشرية دينا ودنيا .

(هـ) والاسلام يشتمل على عدة قضايا كلية هى قواعد التشريع الأساسية ، يمكن أن تستنتج منها أحكام لكل القضايا ، وعلاج لكل المشاكل ، وكانت هذه القضايا أساس الاجتهاد فى الشريعة ، الذى بمقتضاه وجدت المذاهب الفقهية ، وزخرت بالأحكام والتفريعات ، التى كانت منها فروض مقدرة الحدوث فى الأزمان المستقبلة ، وهذا دليل مرونة الاسلام فى صلاحيته لكل تطبيق تعرف منه الأحكام .

ولعل مما يشير إلى هذا أن النبى ﷺ بعث بجوامع

---

(١) سورة المائدة : ٣

(٢) سورة النحل : ٨٩

(٣) سورة الحديد : ٢٥

الكلم ، ألفاظا محدودة تحمل معانى واسعة ، لأنها مركزة تركيزا يدل على حكمة واضعها ، وعلى الغرض الذى من أجله صيغت بهذا الشكل لتكون صالحة لكل زمان تجد فيه حوادث ومشاكل ، ولكل بيئة لها ظروفها وعرفها الذى يناسبه نوع خاص من فروع التشريع .

ومن أمثل هذه القواعد الكلية : الضرورات تبيح المحظورات ، والتكليف بما يستطاع .

(و) والمساواة فى الاسلام أصل مقرر ، ليس أدل عليها من قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) . وفى حجة الوداع قال النبى ﷺ : « الناس لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»

(ز) وفى العدل آيات كثيرة فى القرآن ، منها قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » (٢) ، وقوله: « اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٣) ، وقوله : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

---

(١) سورة الحجرات : ١٣

(٢) سورة النحل : ٩٠

(٣) سورة المائدة : ٨

والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » (١) .

وقد غضب النبى ﷺ لشفاعة أسامة فى حد من الحدود حين سرقت الشريفة المخزومية ، وبين أن سبب هلاك الأمم السابقة هو التفريق فى القانون والمعاملة بين الأشراف وغيرهم ، وأقسم أن فاطمة بنته لو سرقت لقطع يدها (٢) .

(ح) والاسلام أنصف كل الأديان السماوية ، وقرر أن المسلم لا يكون مسلما إلا إذا آمن بالرسل جميعا ، وأولاهم من الاحترام ما يوليه لمحمد ﷺ ، قال تعالى: « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » (٣) ، وفى آية أخرى : « لا نفرق بين أحد من رسله » (٤) . وفى الحديث الشريف « الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (٥) .

---

(١) سورة النساء : ١٣٥
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) سورة البقرة : ١٣٦
(٤) سورة البقرة : ٢٨٥
(٥) رواه مسلم .

(ط) والاسلام دين السلام بحق ، القاعدة عنده هى السلم ، أما الحرب فهي ضرورة شرعت لرد العدوان وتأمين الحريات ، قال تعالي : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » (١) . وقال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله » (٢)، وقال : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (٣) .

ومظاهر التعايش السلمى وتبادل المنافع بين الأمم دون نظر الى عقيدة أو مذهب أو غير ذلك أمر معروف فى الاسلام والأدلة عليه كثيرة .

إن هذا الدين الذى فيه كل هذه المقومات العالمية ، والتى تنص آياته وأحاديثه على أنه وحده دين البشرية ، وتحث على تبليغه ونشره ، جدير بأن يفيد منه العالم كله ، وأن تبذل جهود ضخمة فى سبيل إذاعته فى كل مكان ، وبقاء الدعوة له فى كل زمان .

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٨

(٢) سورة الأنفال : ٦١

(٣) سورة الممتحنة : ٨

الأدلة الواقعية على عالمية الدين الاسلامى :

تكون الأدلة الواقعية على عالمية الدين الاسـلامى مثبتة لهذه القضية إذا أخذت من وســائل تبليغها ، والمجالات التى وصلت إليها وكيف أفاد منها العــالم على اختلاف بيئاته وأجياله ومستوياته ، ويتضح ذلك بعد الحديث على تبليغ الدعوة فى عهد الرسول وبعده فلنتحدث الآن عن التبليغ .

الرسول يبلغ الدعوة العــالمية

(أ) أوامر التبليغ

لقد أمر الله نبيه ﷺ بتبليغ هذا الدين ، لأنه لم يكن كما علمت ، دينا خاصا به ، يعمل به هو وحده ليهتدى الى الحق ، ويزيل القلق النفسى الذى كان يعانيــه عندما يرى الانسان ، وهو أكرم مخلوق يسجد لصنم لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى شيئا ، وعندما كان يرى العادات المرزولة التى يجب أن يتنزه عنها الانسان الذى فضله الله على كثير من خلقه .

وقد حدث أن أرشد الله بعض الناس الى طريق الحق ليسيروا فيه وحدهم ، ولم يكلفهم بإبلاغ ذلك غيرهم ، وهم الذين اصطلح بعض العلماء على تسميتهــــم بالأنبياء دون المرسلين ، وكان منهم قبل الاسلام زيد ابن عمرو بن نفيل ، وخالد بن سنان .

لم يكن الاسلام دينا خاصا بهذا المعنى ، بل كان دين تبليغ وإرشاد للناس كافة .

والآيات التى تأمر بإبلاغ الدعوة أمرا مطلقا كثيرة، منها المكى ومنها المدنى ، وقد يكون مع الأمر العام بالتبليغ بيان وتوجيه للطريق السوى الذى ينبغى أن

يسلكه الداعى ، والصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعون .

ومن الآيات المكية حسب ترتيب نزولها ما يأتى : ـ

١ ـ قول الله تعالى : « يأيها المدثر . قم فأنذر »[1]
وقد جاءت سورة المدثر التى افتتحت بهاتين الآيتين حاملة الأمر بتبليغ الرسالة وكانت أول سورة فى هذا المقام ، وإن كانت سورة العلق هى أول ما نزل من القرآن مطلقا ويفيد النبوة التى ارتبطت بالوحى . على ما يفهم من حديث الصحيحين عن أبي سلمة عن عبد الرحمن قال : سألت جابر بن عبد الله : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : « يأيها المدثر » قلت : أو « اقرأ باسم ربك » قال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال : « إنى جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالى ، ثم نظرت الى السماء فإذا هو - جبريل - فأخذتني رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى ، فأنزل الله « يأيها المدثر . قم فأنذر » .

ويوضح أن هذه المرة كانت بعد المرة الأولى رواية أخري عن جابر فى الصحيحين جاء فيها « فإذا الملك

---

(١) سورة المدثر : ١ ، ٢

الذى جاءنى بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فدثرونى فأنزل الله « يأيها المدثر » . وكان الحديث عن فترة الوحى .

٢ - ومن آيات الأمر بالتبليغ قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (١) .

٣ - وقوله : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » (٢) .

٤ - وقوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (٣) .

بهذه الآيات وبغيرها مما نزل بمكة أمر الله نبيه بالتبليغ ، فنفذ الأمر معتمدا على الله وعلى قوة الإيمان به ، مع الصبر على المكاره والتحلى بمكارم الأخلاق ، من طهارة الظاهر والباطن والبعد عن الرجس فى جميع صوره وأشكاله ، والإخلاص فى الدعوة دون من بها أو افتخار ، كما تدل على ذلك الآيات الأولى من سورة المدثر وهى « يأيها المدثر . قم فأنذر ،

---

(١) سورة الحجر : ٩٤

(٢) سورة الشورى : ١٥

(٣) سورة النحل : ١٢٥

وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

والسيرة النبوية قد وضحت خطوات النبى ﷺ فى تبليغ الدعوة بمكة من الإسراء بها ثم الجهر ، ومن طرق عرضها على الناس ، وما لاقى هو وأصحابه فى سبيل ذلك . وسنشير الى شىء منه فيما بعد .

وعندما هاجر الى المدينة لاحقته أوامر التبليغ ، فليس قصارى غرضه من الهجرة أنه تخلص من أذى قريش ليسكن ويستريح بعيدا عنهم ، ولكن الهجـرة انتقال من ميدان الى ميدان ، وانطلاق من القيود للتحرر والسياحة فى الأرض كما يريد الرسول ودعوته، التى حاول المشركون خنقها فى مكة والقضاء عليها فى مهـدها .

ومن الآيات المدنية التى تأمر بالتبليغ ، ما يأتى : وهى مرتبة حسب النزول :

١ ـ قوله تعالى : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا » (١) . ففى هذه الآية تبليغ لعنصر جديد فى المدينة ، وهم أهل الكتاب، عنصر لم يكن فى مكة بشكل يستحق الذكر ، فقد كان فيها الأميون وهم العرب .

---

(١) سورة آل عمران : ٣٠

٢ ـ قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

٣ ـ قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٢).

٤ ـ قوله تعالى : « لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك ، إنك لعلى هدى مستقيم » (٣) .

٥ ـ قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (٤) .

٦ ـ قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » (٥) .

هذه بعض الآيات التى تأمر الرسول ﷺ بمتابعة تبليغ الدعوة فى المدينة ، كما كان يبلغها فى مكة ، فلننظر كيف بلغها .

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤
(٢) سورة آل عمران : ١٠٤
(٣) سورة الحج : ٦٧
(٤) سورة المائدة : ٦٧
(٥) سورة التوبة : ٦

(ب) منهـــج التبليغ

أولا - فى مـكة :

بدأ الرسول ﷺ يبلغ رسالة ربه كما أمر ، وكان من الطبيعى أن يعلم بها أولا أسرتـه التى علمت خـبر الناموس من أول مجيئه ، فاستجاب للدعوة خديجة وعلى وزيد بن حارثة . وعلم بهـذا الأمر خاصـة أصحابه فأسلم أبو بكر الصديق ، الـذى استطاع أن يضم الى حظيرة الاسلام من أنس فيهم الخير ، كعثمان ابن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ... ثم أسلم غيرهم من السابقين .

ثم خرجت الدعوة عن نطاق الأسرة الخاصة ومدت رواقهـا الى الأسرة العربية العامـة التي تمثلهـا الشخصيات المذكورة ، ولم يـكن النبي ﷺ ليواجـه الناس بها علنا قبل أن يجس النبض ويتخذ له أعوانا ، وحتى يقلب الناس النظر فى الدعوة الجديدة ويبحثوها على مهل . فاستمر على النهج السرى فى الدعوة الذي لا يعدو سماع الناس به وإعجابهـم بما جـاء به أو دهشتهم اليه .

وقد يكون أمر هذه الدعوة سهلا لو أنها كانت مجرد فكرة لمحمد ولمن يعجب به ، دون أن يكلف بعرضها على غيره ، ويعلن بها جهرا أنها تهدم ما تواضع عليه

الناس من عقائد وسلوك لا يتفق معها ، لكنها دعوة جاءت للتبليغ والنشر . فبعد الفترة السرية التى مهدت لها ، جهر بها علنا فى شكل عام ، وكان من الطبيعى أن يعلن بها أسرته الكبيرة من قريش ، لعلها تسلم معه ، أو على الأقل لا تمسه بسوء . فنادى بها على الصفا صادعا بأمر ربه ، وبنى نداءه على أسلوب نفسى حكيم ، إذ انتزع منهم أولا الاعتراف بأنه صادق أمين ، وأنه لا يغشهم ولا يخدعهم ، فقال لهم : (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟) قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ...) . وقال لهم فى إحدى اللقاءات (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم)(١) . وهذا أسلوب عظيم فى أخذ الحجة على الغير ، ولكن عناد القوم صرفهم عن الايمان به ، بل دعاهم الى الاستهزاء به والكيد له ، وصدق الله إذ يقول : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (٢) .

لقد أرادوها دعوة أرستقراطية ، تنزل على كبار السادة فيهم ، ولا يزحمهم فيها سواد الناس من العبيد

---

(١) رواهما البخارى .

(٢) سورة النمل : ١٤

والفقراء ، وأرادوهــا دعوة عنصريــة تراعى فيهــا الأحساب والأسر وما الى ذلك ، ولكن الاسلام دين عام لكل الأجناس ، وهو فى الوقت نفسه تكريم يكرم الله به من يصطفيه من خلقه لمواصفات أدبية عاليــة لا تكون لــكل الناس .

لقد قال الوليد بن المغيرة : أينزل على محمد وحى وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود الثقفى ونحن عظيما القريتين ـ مــكة والطائف ـ ؟ فأنزل الله فى ذلك قوله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربــك ؟ » (١) .

ولما قال الأخنس بن شريق لأبى جهل ، وكانا قــد سمعا القرآن مع أبى سفيان من النبى ليلا : ما رأيك فيما سمعنا من محمد ؟ أجابه : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنــا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هــذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . ونزل فى ذلك قوله تعالى :

---

(١) سورة الزخرف : ٣١ ، ٣٢

« وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته »[١] .

وقد طلبت قريش من النبى أن يطرد من حـــوله العبيد والفقراء فقال الله له : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع مـن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » [٢] .

لقى النبى وصحبـه من ضروب الأذى ما لقـوا ، فصبروا وصابروا ، وكان رسول الله أسوتهم الحسنة فى التحمل ، مؤكدا لهم : أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . عندما قدم له خباب بن الأرت تقريرا شفويا عن سير الدعوة وما يوضع فى طريقها من عقبات ، قال له عليه الصلاة والسلام : (إن من كان قبلكم كان يؤتى بالرجل فتحفر له الحفرة ويوضع فيها ، وينشر بالمنشار ويشق نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يخرجه ذلك عن دين الله) ثم يقسم بأن الله ناصرهم

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٤

(٢) سورة الكهف : ٢٨ ، ٢٩

فيقول : (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) (١) .

خرج النبى بالدعوة من حدود مكة الجغرافية والقبلية ، وذهب بها الى ثقيف فى الطائف ، مؤملا فيهم الخير ، ولكنهم ردوه أقبح رد ، ومع ذلك لم ييأس من النجاح ،ولم يقطع الرجاء فى تكوين أمة مؤمنة ولو بعد حين . بل قال (أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا) ثم دعا لهم وقال : (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) (٢) .

ظل رسول الله يتابع الدعوة على الرغم من كل العقبات ، وهداه تفكيره الواسع الممتد الى أن يوسع دائرة الدعوة لتعم أهل الجزيرة العربية كلها ، ممثلة فى الوفود التى ترد كل عام تشهد المواسم من جميع القبائل العربية ، فعرض الدعوة على القبائل فى لطف، عرضا عالميا ليست فيه أغراض خاصة ، ولا حدود تقف بها عند نقطة معينة لا تتجاوزها .

كذلك كان لا يسمع برجل قدم مكة وله شرف فى قومه إلا جلس اليه يحدثه عن الاسلام ، وبهذه الطريقة

---

(١) رواه البخارى .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٢٦٢

سرى خبر الدعوة الى الجزيرة كلها تقريبا ، فوفد عليه بعض الأفراد بمكة وأسلموا ورجعوا الى قومهم منذرين ، ومن حكمته كان يرجو من هؤلاء الوافدين ألا يأتوا بأقوامهم المسلمين الى مكة ، وهو فى هذه الحالة من الحصار القرشى ، حتى لا تكون فتنة ، لا يستطيع النبى معها أن يحمى الوافدين فتكون حرب طاحنة تعرقل سير الدعوة وهى ما تزال تحبو ، بل أوصاهم أن يلحقوا به إن استقر به المقام ٠

ومن هؤلاء الوافدين بمكة : الطفيل بن عمرو الدوسى ، الذى دعا قومه ثم وفد بهم على النبى بعد فتح مكة ، وأبو ذر الغفارى ، الذى أسلم نصف قومه بدعوته ثم أسلم الباقون بعد الهجرة ، وكذلك وفد على النبى بمكة عشرون رجلا من النصارى ، وقد سمعوا عنه بالحبشة فأسلموا على الرغم من تسفيه قريش لهم ٠

تخطت الدعوة وهى فى مكة حدود الجزيرة العربية، فوصلت الى الحبشة فى السنة الخامسة من النبوة ، وصلت سماعا وعلما عندما هاجر اليها المسلمون الأولون ، ومكثوا فيها عدة سنين ، مكونين أول جالية إسلامية بأفريقيا ٠ ولم يكن الغرض من الهجرة تبليغ

الدعوة بل طلب الأمان والاستقرار بعد أن تزايد اضطهاد قريش لهم • فقابلهم النجاشى واطلع على بعض ما جاءت به دعوة الاسلام ، فأنصفهم وحماهم•

وتم لقاء النبى أخيرا بالأوس والخزرج الوافدين من المدينة ففتح الله قلوب أهلها للاسلام ، فعادوا ونشروا الدين فى المدينة ومهدوا بكثرة عددهم لهجرة النبى والمسلمين اليها ، فكانت الهجرة •

ثانيا ـ فى المدينة :

بعد الهجرة الى المدينة وجد النبى ﷺ فيها جبهتين معارضتين انضمتا الى الجبهة الثالثة التى تركها فى مكة وهى قريش ، الجبهة الأولى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وكان اليهود فى المدينة قوة عظيمة فى العدد والعدد والمال ، والجبهة الثانية تمثلت فى المنافقين الذين أسس حزبهم اليهود ووجهوهم الى الأغراض التى يريدون تحقيقها • فماذا يفعل الرسول الآن ؟ •

إنه لم ينزل المدينة ليستريح من أذى قريش فإنه يعلم أنها لن تتركه ينعم بالراحة ، ولا تتيح له الفرصة ليقوى فيكون قوة أخرى فى الجزيرة تنافسها السيادة • ولم ينزل المدينة ليستريح من أعباء الدعوة ، فإن

الأوامر ما زالت تلاحقه بوجوب متابعة تبليغها ليبرىء ذمته منها ٠

(أ) لقد دعا اليهود الى الاسلام فأبوا ٠ إذ كانوا يعتقدون أنهم خارج نطاقها ، لأنهم أهل كتاب لا حاجة لهم بكتاب غيره ، ولأن النبى المنتظر كان فى اعتقادهم سيكون من سلالتهم ، فاكتفى منهم أولا بعقد معاهدة على حسن الجوار وعلى التعاون على حماية الوطن الذى يضمهم جميعا ، وعلى أن يأمنوا على دينهم وأموالهم ، وترك لهم الحرية فى التدين ، وعاملهم بالحسنى ، وإن كانوا لم يبادلوه هذه المعاملة السلمية٠

واستمر الرسول على استقبال قبلتهم «بيت المقدس» حتى يشعرهم بأنه ليس بدعا من الرسل ، ولم يجىء للهدم والتخريب ، بل للإصلاح والتكميل ، ولم يجىء بالأنانية والاستئثار ، بل بالتعاون والسلام ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وأنهم كانوا يستفتحون به من قبل على الأوس والخزرج ، ناصبوه العداء بكل وسيلة ، ووضعوا فى طريقه العقبات وحاولوا غير مرة أن يقتلوه ٠

وقد صفى النبى ﷺ الحساب معهم فحارب قبيلة بنى قينقاع إحدى قبائلهم ، لإهانتهم لسيدة مسلمة فى سوقهم خرقوا بها اتفاق الهدنة وأجلاهم الى أذرعات

بالشام وكانوا نحو سبعمائة مقاتل . ثم طلب من بنى النضير ، قبيلتهم الثانية ، التعاون مع يهود بنى عامر حلفائهم فى دفع دية سرية القراء ، فهموا بإلقاء حجر عليه من فوق جدار فحاصرهم ثم أجلاهم ، فنزل بعضهم بخيبر وبعضهم ذهب الى أذرعات .

وقد تفاوض بنى النضير مع قريش على حرب الرسول فكانت غزوة الأحزاب ، وخان بنو قريظة، قبيلتهم الثالثة ، العهد فصفى النبى معهم الحساب وبعد صلح الحديبية قضى على وكر اليهود فى خيبر فأجلى بعضهم وأبقى البعض لزراعة الأرض ، وتمم إخضاعهم فى وادى القرى وتيماء ، وفى عهد عمر طهرتالجزيرة العربية من فتنهم ورجسهم فلم يبق فيها إلا دين واحد .

(ب) ودعا النبى ﷺ النصارى الى الاسلام ، ولكن بطريق غير مباشر حيث كانوا ينزلون بعيدا عن المدينة فى أطراف الجزيرة فأرسل اليهم البعوث وأرسل اليهم الكتب كما سيجىء الحديث عنه .

وقد أخبر الله تعالى عن شدة عداوة اليهود للاسلام والمسلمين وعن ضعف مقاومة النصارى للدعوة ، كما فى قوله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين

آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » (١) .

وأمره ربه أن يصبر على ما يلاقيه من أذى فى المدينة حتى تتهيأ الظروف للانتصاف من الظالمين ، ووقفهم عند حدهم ، فقال تعالى : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » (٢) .

وكان جداله لهم بالحسنى ، ومعاملته لهم سلاما ، ولكن تلك الأساليب لم تجد معهم نفعا ، فالحياة الاجتماعية الصحيحة تبادل للشعور والمعاملة ينبغى أن تكون من كل الأطراف لا من طرف دون آخر « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » (٣) .

(جـ) وسار النبى ﷺ مع المنافقين سيرة أساسها قبول الظاهر والله يتولى السرائر ، وكم حدثه أصحابه بوجوب أخذهم بالشدة للأمارات القوية على أنهم يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام تقية « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (٤) .

---

(١) المائدة ٨٢

(٢) آل عمران ١٨٦

(٣) التوبة ٧

(٤) البقرة ١٤

ولكن الرسول يأبى خشية أن يقال ان محمدا يقتل أصحابه ، والرسول فى حاجة الى سمعة طيبة تسير بها الدعوة فى الطريق آمنة ، وتكسب أصدقاء بقدر ما يمكنها ، وبخاصة عندما تكون الدعوة فى بداية أمرها فى مجتمعها الجديد فى المدينة .

حتى إذا استتب الأمر للرسول ، وقضى على أكثر أعدائه صفى الحساب مع المنافقين وطهر منهم المجتمع ، والحوادث فى ذلك كثيرة .

وعلى طول عهد النبى بالمدينة حدثت عدة التحامات مع قريش توجت بنصر الله وفتح مكة وإسلام المعاندين ، وتحطيم آخر وكر لمقاومة الدعوة فى الجزيرة العربية .

كان النبى ﷺ مشغولا فى المدينة بالعدو الداخلى من اليهود والمنافقين ، وبالعدو الخارج عنها من قريش ومن سار فى ركابها ، ولم يكن لديه الوقت الكافى لنشر الدعوة خارج المدينة بشكل رسمى ، فإن أهلها لم يطمئنوا على أنفسهم بعد ، فانتهز فرصة الهدنة التى وقعها مع قريش فى الحديبية واتخذ خطوة إيجابية لنشر الدعوة خارج المدينة ، سواء أكان ذلك فى داخل الجزيرة أم فى خارجها . وكان يرسل بين الفينة والفينة بعوثا تبلغ الدعوة أو ترشد المسلمين الى واجبهم .

ولنقسم هذا الركب الزاحف بالدعوة الى قسمين : قسم داخل الجزيرة وقسم خارجها ، والقسم الداخلى كان بعضه موجها الى القبائل وبعضه موجها الى الأفراد ذوى السلطان والنفوذ ، وبعض هذا الركب الداخلى كان من المنتسبين الى القبائل التى يوجهون اليها ، لأنهم كانوا قد أسلموا من قبل فأذن لهم النبى بدعوة أقوامهم بالقدر الذى يستطيعون ، وكان أكثر ما يستطيعونه هو العقيدة المبسطة والأصول الاسلامية الأولى .

فى داخل الجزيرة :

(أ) البعوث الى القبائل : بعث النبى ﷺ ستة من أصحابه ، فيهم عاصم بن ثابت ومرثد بن أبى مرثد الغنوى وخبيب ، الى الرجيع ، وهو ماء لهذيل بين مكة والحجاز ، وذلك بناء على طلب رهط قدم الى النبى ﷺ من عضل والقارة ليفقهوا المسلمين فيهم ، وقد غدروا بهذه البعثة .

وبعث جماعة من القراء الى بئر معونة ، وكانوا نحو سبعين على بعض الأقوال ، بناء على طلب ملاعب الأسنة ، فغرروا بهم أيضا ، وبعث الضحاك بن سفيان الى بنى كلاب فأسلموا ، ووفد منهم جماعة على النبى فى السنة التاسعة .

كما أرسل النبى ﷺ الى اليمن معاذ بن جبل ومعه أبو موسى الأشعرى ، وأسلم غالب الناس على أثر هذا البعث ، ثم أرسل اليهم عليا وقاتل من لم يسلم فهزمهم ، ثم دعاهم الى الاسلام فأسلموا عن استجابة ورغبة ، فأقام فيهم يقرئهم القرآن ويعلمهم حتى وافى النبى فى موسم الحج بمكة .

وأرسل خالد بن الوليد فى السنة العاشرة الى بنى عبد المدان فى نجران ، وكانوا نصارى ، ليدعوهم الى الاسلام فأسلموا ، وأقام فيهم مدة يعلمهم ، ثم وفد على النبى ومعه بعضهم ، ثم أرسل اليهم عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ومعه كتاب مفصل .

وبعث النبى خالدا أيضا الى همدان باليمن ليدعوهم وكان معه البراء بن عازب فمكثا ستة أشهر ولم يسلم أحد ، فبعث النبى اليهم عليا ، وبعد أن دعاهم أبوا فكان قتال عنيف انهزموا فيه ثم أسلموا .

ومن بعوث النبى جماعة أسلموا سابقا فأرسلهم الى أقوامهم مبشرين ، منهم ضمام بن ثعلبة فى بنى سعد ابن بكر ، وأبو ذر فى غفار ، والطفيل الدوسى فى قومه ، وعمرو بن مرة فى جهينة ، وعروة بن مسعود فى ثقيف .

(ب) البعوث الى زعماء . منهم المهاجر بن أمية المخزومى الى الحرث بن عبد كلال أحد أقيال اليمن

فأسلم ، وجرير بن عبد الله البجلى الى ذى الكلاع وذى عمرو الحميرى فأسلما ، والعلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى أمير البحرين فأسلم ، وعمرو ابن العاص الى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، ملكى عمان فأسلما . وسليط بن عمرو العامرى الى هوذة ابن على الحنفى صاحب اليمامة فلم يسلم ، وشجاع ابن وهب الى الحرث بن أبى شمر الغسانى وهو بغوطة دمشق ، فلم يسلم وبعث بالكتاب الى قيصر ، وعياش بن ربيعة المخزومى الى الحرث ومسروح ونعيم ابن عبد كلال من حمير فأسلموا . وعمرو بن أمية الضمرى الى مسيلمة الكذاب فلم يسلم .

فى خارج الجزيرة :

أما البعوث الخارجية فتتمثل فيمن حملوا كتب النبى ﷺ الى كبار الملوك المجاورين للجزيرة العربية ، والذين يمثلون القارات الثلاثة، آسيا وأوربا وأفريقيا. وكان ذلك فى السنة السادسة للهجرة .

(١) كتب النبى الى هرقل قيصر الروم ، وأرسل الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبى ، فسلمه الى عظيم بصرى ، الحرث بن أبى شمر الغسانى ، الذى أعطاه بدوره الى هرقل ، وتحدث هرقل مع أبى سفيان فى شأن النبى ودعوته ، وكان أبو سفيان إذ ذاك فى تجارة

بالشام فى وقت الهدنة ، فمال هرقل الى الاسلام ، ولكن عندما شاور قومه حاصوا حيصة حمر الوحش وأنكروا عليه ذلك . وجاء فى مسند أحمد أنه كتب من تبوك الى النبى بإسلامه ، فقال النبى ﷺ « كذب ، بل هو على نصرانيته » .

(ب) وكتب النبى الى كسرى أبرويز ملك فارس ، وأرسل الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمى ، وأمره أن يدفعه الى عظيم البحرين ، المنذر بن ساوى ليدفعه بدوره الى كسرى ، فمزق كسرى الكتاب ولم يسلم ، بل أخذته العزة بالإثم ، فأرسل الى باذان عامله على اليمن أن يوجه الى النبى من يقتله ، فمزق الله ملكه وقتله ابنه شيرويه .

ولما جاء رسولا باذان الى النبى أخبرهما بموت كسرى ، وبدعوة باذان الى الاسلام ، فلما عادا وأخبراه بذلك وتحقق صدق خبر الرسول بموت كسرى أسلم وأسلم معه كثيرون من الفرس الذين كانوا باليمن ، وهو يعتبر أول من أسلم من ملوك وأمراء اليمن .

(حـ) وكتب النبى الى المقوقس عامل هـــرقل على مصر ، وبعث بالكتاب مع حـاطب بن أبى بلتعة ، فسلمه اليه بالاسكندرية ، وبعد محاورة طويلة مـــع حاطب قال : سأنظر وبعث الى النبى بهـــدايا ولم يسلـــم .

(د) وكتب الى النجاشى أصحمة ، وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمرى فأسلم .

وفى هذه الكتب ملاحظات هامة منها : -

١ - أنها كتبت باللغة العربية ، وهى اللغة الرسمية للدولة الاسلامية ، التى ترجمت الى لغة المبعوث اليهم ، إما على يد حامل الرسالة ، وإما بوساطة مترجم محلى ، وهو الظاهر ، وقد ذكر ابن سعد أن النبى ﷺ ألقى كلمة توجيهية فى البعوث ، جاء فيها : انصحوا الله فى عباده ، فإن من استرعى شيئا من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة ، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم ، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد . فأصبحوا - يعنى الرسل - وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل اليهم ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال « هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم فى أمر عباده » .

وإذا صح هذا الخبر ، وكان ذلك إكراما لرسول الله فى أشخاص هؤلاء ، فإن معرفتهم باللغات لا تعدو أن تكون سطحية بقدر يسير لا يعتمد عليه فى المهمات الرسمية الدقيقة ، وقد كان للملوك مترجمون لمثل هذه الأمور يوثق فى ترجمتهم ، وقد جاء فى خبر كتاب النبى

الى هرقل عند ما سلمه اليه دحية أن هرقل دعــــا الترجمان الذى يقرأ العربية فقرأه ٠

والكتابة الرسمية باللغة الرسمية للجهة المرسـلة ، ضمان أكيد لدقة التبليغ بالمعنى الذى يريده المرسل ، حتى إذا حدث خطأ فى الترجمـــة كانت التبعـة على المترجم لا على الكتاب ولا على مرسله ٠ وكثيرا مـــا حدثت مشاكل من جهــة الخطــأ فى الترجمــة ، وكان الرجوع الى النص الأصلى فيصل الموضوع ٠

٢ ـ أن كتب النبى الى هؤلاء المــلوك كانت على خلاف كتبه الى أمراء العرب ، فقد ختمت بخـــاتم النبى ﷺ ، وكان نقشه « محمد رسول الله » كما رواه البخارى ٠ ولهذا الخاتم أهميته فى الوثوق من رسمية الكتاب وصدوره عن مرسله ، وفيه تكريم لهؤلاء الكبار على ما كان متبعا عندهم ٠

٣ ـ وقد اتبع النبى فى إرسال هذه الكتب طريقـــا ديبلوماسيا عظيما ، إذ بعث بهـا الى ممثلى هؤلاء الملوك فى بلاد العرب ليكونوا وسطاء فى توصيلها الى الملوك ، وهو تقليد يجرى عليه العـرف الديبلوماسى الحديث اتبعه الرسول منذ قرون ٠

٤ ـ النقط الجوهرية التى دعت إليها هذه الـكتب هى التوحيد والإيمان برسالة محمـد ، وهذا ترتيب

طبيعى فى الدعوة ، يبدأ فيها بالأصول والمبـــادىء العليا ، فإذا حصل التصديق بها بينت الفروع بعد ذلك.

٥ ـ لقد كانت الدعوة الى الملوك دعوة الى العـالم كله أو الى غالبه ، بوصفهم ممثلين للشعـــوب التى يحكمونها ، والأجناس التى تعيش تحت ظلهم ، وقد كانت لفارس مستعمرات تحتها أجناس ، وللروم كذلك مستعمرات كبيرة متعددة ، وكان للحبشة نفوذ فى البلاد التى تجاورها ، انظر الى قوله : « الى هرقـل عظيم الروم » وقوله : « فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ـ الفلاحين ـ أى فعليك إثم الأتباع والرعية لأنهم اتبعوك، وكذلك قوله : « الى كسرى عظيم فارس » وقوله : « فإن توليت فعليك إثم المجوس ـ عبدة النار أتباعه ـ وكذلك قوله : « الى النجاشى ملك الحبشة » وقوله : « فإن توليت فعليك إثم النصارى من قومك » وهكذا .. وذلك يؤكد أنها دعوة عامة .

٦ ـ يعجبنى فى كتاب النبى ﷺ الى هرقل وتضمينه هذه الآية الكريمة : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أن فيها دعــوة الى

المساواة « كلمة سواء بيننا وبينكم » لا يقصد منها استعلاء ولا تحكم ولا استغلال ، وفيها رفع لكرامة الانسان ودعوة الى عدم خضوع أحد لأحد خضوع عبادة ، فلا معبود إلا الخالق ، والمخلوقون جميعا ضعاف يتساوون فى الدينونة الى الله « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ، وفيها تقليد ديبلوماسى رائع أساسه الدعوة الى السلام والاحترام المتبادل بين الأمم ، فاذا قام مجتمع جديد أو شكلت حكومة جديدة ثائرة على أوضاع قديمة ، يبلغ الأمر الى الدول الأخرى إخطارا بالأساس الذى قام عليه المجتمع أو شكلت الحكومة ، لعلها تقلد أو تعجب ، أو تمنح الفرصة لتدرس فإن لم تسر على مثل ما سارت عليه ، فحسب المجتمع الجديد أن تعترف الدول الأخرى بوجوده وبكونه حقيقة واقعة تترتب عليها الاجراءات الدولية المتبعة ، « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أى إن لم تدخلوا فيما دخلنا فيه فأقروا بوجودنا الاسلامى وعاملونا على هذا الأساس ٠

والى جانب إيفاد البعوث وإرسال الكتب لنشر الدعوة كانت ترد الوفود على النبى ﷺ طائعة مختارة ، لتسلم رسميا أو لتتعلم ، ثم تتولى هى نشر

الدعوة فى أقوامها ، فوفد على النبى ﷺ أكثر من ستين وفدا ، كان أكثرهم فى السنة التاسعة التى سميت سنة الوفود وقد تمثلت فيها جميع قبائل العرب فى منازلها ومضاربها المختلفة كما حققه العلماء ، وكان فى بعض الوفود نصارى لم يسلموا ، كنصارى نجران الذين استقبلهم النبى فى مسجده وأذن لهم أن يصلوا فيه صلاتهم ، وعقد معهم معاهدة بقوا فيها على دينهم فى مقابل تعهدات تدل على حسن نيتهم نحو الدعوة بتركها حرة تشق طريقها فى أمان الى المتعطشين اليها ، لا يعترضونها ولا يعينون على المسلمين ، ولا يسيئون اليهم أية إساءة .

وبهذا يكون الرسول ﷺ قد أبرأ ذمته وبلغ الرسالة تبليغا رسميا عاما ، ولم يشأ أن يترك الدنيا قبل أن يؤكد التبليغ فى شكل جماعى ومؤتمر عام ، يشهد فيه الناس أنه بلغ ، ويشهد ربه على ذلك .

لقد اجتمعت فى حجة الوداع آلاف مؤلفة ، أعلن فيها خلاصة ما دعا اليه من مبادىء طوال الثلاثة والعشرين عاما ، وقال فى النهاية : « فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت » وفى رواية « وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة ، يرفعها الى السماء ،

وينكثها الى الأرض ويقول : « اللهم اشهد » ثلاث مرات ، وأمرهم بالتبليغ عنه فقال « فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

ولم يشأ أيضا أن يترك هذا الموقف التاريخى العظيم فى الأماكن المقدسة قبل أن يبين لهم الأصل الثابت الذى تؤخذ منه القواعد ، وتدور على أساسه الدعوة، والسبب الأقوى الذى يجمعهم على الحق ويكتب لمجتمعهم القوة والأمان والرخاء فقال : « وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنة نبيه » .

وفى هذا الموقف الجامع أعلن على الملأ أن الله قد أتم نعمته على المسلمين بهذا الدين الكامل الوافى بأغراض الحياة السعيدة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا»(١).

---

(١) المائدة ٣

المسلمون يبلغون الدعوة العالمية

(ا) أوامر التبليغ

ومع كون الرسول ﷺ مأمورا بالتبليغ ، وقد بلغ فقد أمر أمته بمتابعة تبليغ الرسالة وحمل الأمانة من بعده ، وكان لابد من هذا التبليغ العام لأن الرسول ليس مخلدا والسنوات التى عاشها لا تكفى لأداء هذه المهمة تفصيلا ، فحسبه أنه رسم الطريق وأقام المنارات ووجه وأرشد وبين ووضح • لقد غرس النبتة وترك لأصحابه متابعة رعايتها بإمدادها بأسباب القوة ، وصد الأذى عنها وتكثيرها عن طريق الأخذ منها بأية طريقة ممكنة ، لتصبح أرض البشرية كلها خضراء تنعم بالظل الوارف والثمر الشهى وتستمد كل أسباب الحياة •

وأوامر التبليغ كثيرة منها :

١ ـ قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » [1] •

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٤

وقد قال العلماء فى تفسيرها : إن معنى « من » التبعيض فالذين يتولون مهمة الدعوة بعض الأمة والوجوب عليها كفائى ، وهذا البعض هو من يصلح للدعوة من حيث العلم بها وحسن عرضها ، أما غيرهم فلا حرج عليهم • وقال بعض المفسرين : إن « من » هنا للتجريد ، على معنى فلتكونوا أمة تدعو الى الخير ، وهو وإن كان خطابا للمجموع يصح أن يراد به الجميع ، على معنى أن كل انسان يستطيع أن يدعو بالقدر الذى يعرفه وبالوسيلة التى تمكنه كان عليه أن يدعو ، ليكون طابع الأمة هو الدعوة الى الخير ، وذلك جوهر الرأى العام الناضج القائم على الفقه والوعى الكامل والغيرة على إشاعة الخير والتمكين للحق •

فالعامة من الناس يدعون الى القضايا والأحكام الواضحة السهلة ، والخاصة منهم مكانهم عند الجدل والمناقشة ذات المستوى العالى ، وكل هؤلاء لابد أن يحسنوا عرض الفكرة ، حتى لا يحصل رد فعل يسىء اليها ، وهو ما بينه الله لنبيه بالحكمة والموعظة الحسنة •

والذين يقومون بالدعوة خارج المجتمع الاسلامى جماعة مخصوصون ، لا يجوز أن يخرجوا جميعا ،

وإلا خلت الديار منهم وتعطلت المصالح الداخلية ، فالدعوة فى الخارج كالجهاد ، بل هى جهاد يقوم به بعض المسلمين ويبقى الآخرون للأعمال الأخرى ، قال تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون»(١) قال فيها بعض المفسرين إن النافرين هنا هم المجاهدون والمتفقهين هم الباقون مع الرسول ليتلقوا عنه العلم ويبلغوه الى المجاهدين عند عودتهم .

٢ ـ ومن أوامر التبليغ قول النبى ﷺ (ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه) (٢) .

٣ ـ وقوله : (نضر الله امرأ سمع منى شيئا فبلغه كما سمع ، فرب مبلغ أوعى من سامع) (٣) وجاء فى بعض رواياته « فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه » .

٤ ـ وقوله : « اللهم ارحم خلفائى » قلنا يا رسول

---

(١) سورة التوبة : ١٢٢

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح .

الله : ومن خلفاؤك ؟ ، قال (الذين يأتون من بعدى يروون أحاديثى ويبلغونها الناس) (١) ٠

٥ ـ وقوله : (بلغوا عنى ولو آية ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) (٢) ٠

هذا الى جانب الآيات الكثيرة التى تدل على فضل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وترغب فى دلالة الغير على الهدى وأن للدال مثل أجر الفاعل ، وأن رجلا واحدا يهديه الله على يد إنسان خير له من حمر النعـم ٠

وأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ، كما رواه الحاكم وصححه ، وما ورد من قول الرسول ﷺ فيما روى عنه (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) حديث حسن ذكره القسطلانى ٠

وقد قال العلماء : إن تبليـغ الـدعوة واجب ، وأجمعوا على ذلك ٠ غير أنهـم قالوا : إنه واجب وجوبا كفائيا ، بمعنى أنه اذا قام به البعض سقـط الطلب عن الباقـين ، وهو واجب وجوبا عينيا لمن

---

(١) رواه الطبرانى ٠

(٢) رواه البخارى ٠

وجد وحده وليس معه غيره يقوم بهذا الواجب ، ومثل هذا مثل مسلم وجد فى بلد ليس فيه مسلمون ، أو مع جماعة ليس فيهم مسلم كان عليه أن يدعو بالقدر الذى يعرفه ويستطيعه ، ولا يفلت أبدا من هذا التكليف .

(ب) منهج التبليـغ :

وقد استجاب الصحابة واستجابت الأمة الاسلاميــة الى أوامر القرآن وتوجيهات الرسول فنشروا الدعوة بكل ما أوتوا من قوة ، بدافع من دينهم فى غير مطمع دنيوى ، وفى الاطار الذى رسمــه النبى . وكان من آثار هذا النشاط قيام هذه الدولة العظيمــة ، التى وقفت تتحدى الزمن وتحتل مكان الصدارة فى العالم كله قرونا طويلة .

انطلق أصحاب رسول الله يحملون لواء الدعوة ، مجاهدين بالقرآن « وجاهدهم به جهادا كبيرا » (١) داعين الى الاسلام ومكارم الأخلاق وقواعد العــدل والنظام . متسلحين بما يدفع عنهم غائلة المعتدى ، ويرفع العقبات من الطريق ، ومستهدفين بذلك أن يفتح الله على أيديهم قلوبا غلفا وأعينا عميا وآذانا صما ، متمثلين فى ذلك قول النبى ﷺ : (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)(٢) ، بل

---

(١) سورة الفرقان : ٥٢

(٢) رواه مســلم .

إن حمر النعم التى كان يسيل عليها لعاب العربى من قبل ، لم تعد تشغل فكره بعد إخلاصه للواجب لذاته ، فلم يغره الريف النضر أن يرتع فيه ، ويحط رحاله بين سهوله ووديانه المرعة فى الشام والعراق ومصر ٠

وبهذه الروح القوية ، وبالأمل الباسم فى إحدى الحسنيين ، الشهادة أو النصر ، وبالنفسية الطاهرة العفيفة ، والارتفاع فوق مستوى الماديات المغرية زحفت الدعوة حتى اتسعت رقعة الاسلام ، وتكونت دولة لا تغيب عنها الشمس ، حتى أذنت للخليفة العباسى أن يتحدى الغمامة أينما سارت وأمطرت فسيأتيه خراجها ٠

لقد تلقف الناس دين الاسلام لما أنسوا فيه من المبادىء الانسانية العالية ، ولما رأوا فيه من الغذاء الروحى ، الذى اطمأنت به عقولهم وسكنت نفوسهم٠

رأينا الفرس مثلا وقد كان بينهم وبين العرب ما هو معروف من العصبية المتطرفة ، يشغلون بعد موقعة القادسية بالدخول فى الاسلام ونشره بين ربوع البلاد ، والاقبال على تعلم لغته والتبحر فى علومه ، حتى كانت بعد سنوات معدودة تضم أقطاب الاسلام فى الميادين المختلفة ٠

وكذلك كان للاسلام فضل كبير فى البلاد التى وصل اليها بعد حدود فارس شمالا وشرقا ، إذ أخرج الناس من وثنية منحطـــة الى دين هو أرقى ما يمكن أن يتصوره العقل ، نالوا بسببه مزايا اجتماعية وأدبية ما كانوا يحلمون بها من قبل ٠

وفى شمالى أفريقيا الذى كـان يرزح تحت نـير الاستعمار ، نشطت بفضل الاسلام بلاده وعادت أفضل مما كانت عليه ٠

بل إن الاسلام كان له فضله البالغ على أوربا أيضا، فقد كانت الى القرن السابع الميلادى تعيش فى ظلام حالك ، من الجهل والفوضى الاجتماعية والسياسية وتحكم رجال الدين فى حياة الناس ، فجاء الاسلام وأسس بعض رجاله دولة فى أسبانيا التى كانت على مثال غيرها من الاستبداد ، فمضى المسلمون عـلى سجيتهم فى تأسيس المدارس والمستشفيات ونشر العلم والمدنية واستقبال الوافدين من كل صوب ، لينهلوا من معين الحضارة الاسلامية العذب ، غير ناظرين الى أجناسهم أو أديانهم أو لغاتهم ، وكمـا فعـــل المسلمون فى أسبانيا فعلوا فى صقلية ، وصارت مركزا يحج اليه الراغبون فى العـلم والمعرفة الصحيحة من كل البقاع ٠ فكان ذلك منبها لأوروبا وحافزا لها على

التفكير فى مصيرها ، وكان من وراء ذلك نهضتهم الحديثة المعروفة .

الدعوة فى الشرق :

تعال معى أيها القارىء نتابع ركب الاسلام الزاحف لنرى كيف تقبلته الأمم ورضيته دينا لها ، وسيكون مرورنا مع الركب سريعا فالمجال لا يتحمل الاستراحة فى كل محطات العالم لندرس على مهل آثار الاسلام فى هذه البلاد . وحسبنا من ذلك لقطات سريعة فى مرورنا العابر ونماذج تدل على غيرها من آثار .

اتجه ركب الاسلام نحو الشرق مارا بشمالى بلاد العرب فأسلم المسيحيون من غسان ، وبعد موقعة القادسية وفد المسيحيون الضاربون على ضفاف الفرات الى « رستم » مسلمين ، وساعد النصارى المقيمون فى الأراضى البيزنطية جيوش العرب فى فتح فارس . وكتبوا الى أبى عبيدة قائد الجيش الاسلامى: يا معشر المسلمين ، أنتم أحب الينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا .

وكان للتسامح الدينى معهم ومع غيرهم أثره فى كثرة دخولهم فى الاسلام ، مع ما وجدوه من سهولة العقيدة وبساطة الدين ويسر التكاليف ، الى جانب

استيائهم من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الإغريقية الى اللاهوت المسيحى ، يقول : «كيتانى» :

فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف ، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك الحالة قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديدالذى بدد بضربة منضرباته كلالشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة ، الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة ، التى لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى بلاد العرب (١) .

ولم يكن هناك أى قهر فى اهتدائهم الى الاسلام أو أى اضطهاد لهم . ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية ، بتلك السهولة التى أقصى بها « فرديناند وإيزابيلا » دين الاسلام من أسبانيا ، أو التى جعل بها « لويس الرابع عشر » المذهب البروستانتى مذهبا يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا ، أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين عن انجلترا مدة ثلثمائة وخمسين سنة ، كما يقول أرنولد .

---

(١) تاريخ الدعوة لأرنولد ص ٧٣

فتحت فارس ودخل أهلها الاسلام طوعا مرحبين بالدين الجديد الذى خلصهم من الوثنية والأوضاع الفاسدة ، وقامت فيها الخلافة العباسية التى تمثلت فى عهدها الأول حضارة الاسلام الزاهرة ، ثم واصل الاسلام زحفه شرقا الى أواسط آسيا ، حتى استقر أمره فيما وراء النهر فى زمن المعتصم العباسى ، وكان لمحمود الغزنوى أثره فى نشره هناك .

وانتشر الاسلام فى أفغانستان وأعلن ملك كابول اسلامه فى زمن الخليفة المأمون ، وتوطدت أركان الاسلام فى كافة أرجائها بانتهاء فتوح سبكتكين ومحمود الغزنوى .

ودخل المغول الاسلام بفضل الدعاة المسلمين ، مع ما عرف عنهم من جبروت فى أعمالهم الحربية ، وكان أحدهم ، وهو بركة خان (١٢٥٦ - ١٢٦٧ م) أول من أسلم من أمرائهم ، على يد تاجرين من بخارى ، وأسلم على يديه كثير من جنود هولاكو ، الذين فروا اليه . وأسلم أحمد أخو هولاكو (١٢٧٤ - ١٢٨٢ م) . وعمل على نشر الاسلام بين التتار .

وانتشر الاسلام بين القبيلة الذهبية النازلة فى وادى الفولجا ، وهى إحدى قبائل المغول .

ودخل البلغار الاسلام على يد التجار المسلمين ، وحاول البلغار هداية ملك روسيا « فلاديمير » عندما أراد أن يبحث عن دين غير الوثنية ، ولـــكنه خشى المسلم كان يعد نفسه داعية مخلصا لله .

وأسلم القيرغيز فى وسط آسيا على أيدى علماء التتر فى القرن الثامن عشر ، وأصبحت مدينة قازان مركزا دينيا للدعوة الاسلامية أسلم بفضل نشاطها كثيرون. وذلك ـ كما يقول أرنولد ـ راجع الى مستوى الأخلاق فى المجتمع الاسلامى ، الذى كان أكثر رقيا ، والى أن المسلم كان يعد نفسه داعية مخلصا لله .

وزحف الاسلام حتى وصل سيبريا ، وبذل سلطانها « كوتشم خان » جهدا كبيرا فى نشرها . ويذكرون أن القيرغيز يغنون أغانى شعبية لها مكانتها بين وسائل الدعوة فى الوقت الحاضر ، وقد تضمنت حقائق الاسلام الأساسية مصوغة فى قالب قصصى ، جعل العامة تقبلها بيسر وسهولة .

ودخل الاسلام الهند فى وقت مبكر عن طريق التجار العرب وبالفتح الاسلامى ، وكان لمحمود بن سبكتكين جهد واضح فى ذلك وكان للاسلام أثره فى تخفيف حدة

الطبقات المتوارثة فى ديانة الهنود ، وفى تكريم المرأة التى كانت تحرق حية لتلحق بزوجها الميت ، وأصبحت فى الهند جامعات دينية ذات طابع قديم .

كذلك وصل الاسلام سيلان ، وفيها الآن مدارس اسلامية ، وانتشر أيضا فى جزر (مالديف) التى يغلب الاسلام على سكانها .

ووصل الاسلام أندونيسيا والفليبين على يد الدعاة من العرب والهند ، واستجاب الناس له بسرعة ، لأنهم وجدوا فيه سكن نفوسهم وغذاء أرواحهم ، وكان فضل انتشاره فى هذه الجهات للحضارمة برحلاتهم التجارية البحرية ، وأفادت البلاد من الاسلام تهذيبا لعاداتهم وشعورا بالحد من التنافس المسعور بين جزرها ، والتخلص من بقايا البوذية والكونفوشية ، ونشطت الدعوة اليه فى عهد امبراطورية «ماجافاهيت» (١٢٩٣ - ١٤٧٨ م) .

وصل الاسلام الى الصين فى القرن الأول الهجرى ، وكان ذلك عن طريقين :

طريق البر من مقاطعة (سينكيانج) ، وطريق البحر حيث كانت توجد جاليات عربية على الساحل تزاول أعمال التجارة هناك .

وكان انتشاره فى مبدأ الأمر بين الأفراد وبجهودهم، ولم يدخل بيت الملك إلا فى حكم المغول بفضل الداعية البخارى شمس الدين عمر ، الملقب بالسيد الأجل ، والذى كان له نفوذ إسلامى عظيم .

كما وصل الاسلام الى كوريا واليابان ، ثم تخطى هذه القارة ووصل الى استراليا فى القرن التاسع عشر على يد المهاجرين من الهند والأفغان ، ويتزعمهم مسلم انجليزى يدعى (بريستلى) الذى أسلم سنة ١٩٤٧ لتأثره بالاسلام الذى يحترم جميع الأنبيـاء ، ويدعو الى السلام كما تابع الاسلام زحفه الى جـزر المحيط الهادى ، ويوجد الآن فى جزر (فيجى) نحو ثلاثين ألف مسلم .

الدعوة فى الغرب :

بعد انتقال النبى ﷺ الى الرفيق الأعلى فتح عمرو ابن العاص مصر ، ورحب أهلها بالفاتحين ، وتابع الفتح سيره الى شمالى أفريقيا وأزال حكم الرومان من قرطاجنة سنة ٦٩٨ م ، وكان من أهاليها الجيش الذى فتح الأندلس سنة ٧١١ م بقيادة طارق بن زياد ، ومن هذه الجهة استطاع الاسلام أن ينفذ الى الجنوب متوغلا فى الصحراء حتى وصل الى خط الاستواء فى سنين متتالية .

وكان لنشاط الطرق الصوفية أثره فى هذا الميدان ، وبخاصة القادرية والشاذلية والتيجانية والسنوسية ، وظهرت أسماء كثيرة لامعة فى سماء الدعوة للدين ، منها عبد الله بن يس ، الذى اتخذ له رباطا فى إحدى جزر السنغال وجعله مركز دعوته ، وبث دعاته فأسلمت آلاف من قبيلة (لمتونة) ، وما زال يدعو حتى توفى فى سنة ١٠٥٩ م ، وحمل أتباعه المرابطون أمانة الدعوة من بعده ، وقويت شوكتهم حتى فرضوا سلطانهم على أسبانيا .

وكذلك ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وله جهود طيبة فى نشر الدعوة التى نشطت فى القرن السادس عشر كرد فعل لطرد المسلمين من أسبانيا .

وتحمست قبيلة (لمتونة) و (جداله) من صنهاجة لنشر الدين فى السودان ، وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش سنة ١٠٦٢ م وثانى أمراء المرابطين حافلا بدخول الناس فى الاسلام .

وفى سنة ١٠٧٦ م أسلمت مملكة (غانا) عن بكرة أبيها ، وتأسست فى القرن الحادى عشر مدينة (تمبكتو) وصارت مركزا علميا هاما الى جانب مركزها التجارى .

وكما دخل الاسلام هذه الجهات من الشمال دخلها من الشرق ومن الشمال الشرقى ، فدخل من مصر الى (كانم) عند بحيرة تشاد التى صارت بعد دولة عظيمة ، اشتهر من دعاتها (عمر كبا) الذى هدى قبائل (بمبارا) الى الاسلام فى أوائل القرن العشرين .

وفى القرن الرابع عشر هاجر بعض قبائل العرب من تونس الى الجنوب حتى وصلوا دارفور ، وتزوج أحدهم المسمى (أحمد) بنت ملكها ، وتولى الملك بعده ، فكانت الدولة الاسلامية التى دامت الى وقتنا الحاضر .

ومن أشهر الدعاة فى هذه المناطق (عثمان دنفديو) المصلح الدينى فى القرن الثامن عشر ، وتابع أولاده الدعوة من بعده ، وكان لنشاط أحمد إدريس أثره فى نشر الدعوة بفضل أحد أتباعه وهو محمد عثمان الميرغنى .

ومن أشهر رجال الطريقة الفادرية فى الغرب الحاج (عمر تال) المشهور بعلمه وورعه ، وقد توفى سنة ١٨٦٥ م ، وكذلك (أحمد ساموری) الذی جاهد حتی أسره الفرنسيون ، وتوفى سنة ١٩٠٠ م ، وقامت السنوسية بجهد كبير فى نشر الدعوة بطريقة سلمية

آمنة ، وأسس محمد بن على السنوسى فرقة دينية للإصلاح ، وجعل مركز دعوته (جغبوب) وتوفى سنة ١٨٥٩ م ، بعد أن أسس دولة اسلامية .

وعلى العموم كان الدعاة فى هذه المناطق ، كما يقول أرنولد ، دعاة ذوى غيرة وحماسة بالغة ، ولهذا فمن مصب السنغال حتى لاجوس فى غانا ، وفى مسافة تبلغ ألفى ميل ، يندر أن تجد مدينة زاهرة ذات أهمية إلا وفيها على الأقل مسجد .

وفى شرقى أفريقيا كانت الدعوة قد وصلت الحبشة أيام الرسول وكثر فيها المسلمون بعد القرن الرابع الهجرى ، وزاد عددهم فى القرن الحادى عشر حتى بلغ ثلث السكان تقريبا ، ثم كانت حركة « أحمد القرين » فى القرن السادس عشر التى أسلم بسببها الكثيرون وقتله الأحباش بمعونة البرتغاليين سنة ١٥٤٣ م .

وعلى الساحل الشرقى هاجرت جماعة من الشيعة على رأسهم زيد بن على حفيد الحسين المتوفى ٧٤٠م ، وجاءت جماعة من منطقة قرب الأحساء بالخليج العربى، وبنو أول مدينة على الساحل هى «مقديشيو» حوالى منتصف القرن العاشر ، وصار لها سلطان على كل عرب الساحل حوالى سبعين سنة ، حتى قدمت

جماعة أخرى من الخليج العربى وحطوا رحالهم فى (زنجبار) وتتابعت الهجرات حتى جاءت فى القرن الخامس عشر جماعة من حضرموت يدعون الى الاسلام ،فجعلوا (بربرة) مركز دعوتهم ، وكانوا نحو أربعة وأربعين ، سافر بعضهم الى (هرر) وهدى كثيرين الى الاسلام ٠

توغل المهاجرون داخل أفريقيا ، وكونوا مستعمرات اسلامية فيها ، ورحبت أوغندة بتجار العرب ترحيبا بالغا ، وأنشئت مراكز اسلامية فى الكونغو ، بفضل التاجر العربى (تيبوتيب) الذى وصل نهر الكونغو فى منتصف القرن التاسع عشر ٠

وعلى يد هؤلاء التجار دخل الاسلام (نياسالاند) وشق طريقه الى جنوبى القارة حتى مستعمرة الكاب، بفضل المهاجرين من الملايو الذين جلبهم الهولنديون فى نحو القرن السابع عشر أو الثامن عشر كما جاء اليها بعض الهنود ، وكسب الاسلام هناك أكثر مما كسبت بعثات التبشير المسيحية ، على الرغم من التفاوت الكبير بين القوتين وكذلك وصل الاسلام الى مدغشقر وجزر المحيط الهندى ٠

وكانت أهم العوامل لسرعة تقبل الأفريقيين للاسلام ونجاح الدعوة فيهم ما يأتى : -

١ ـ أن كل مسلم يعد نفسه داعيا الى الله ، يرى أن ذلك واجب عليه لا يحتاج الى ترتيبات وإجراءات خاصة ، كالتى يتخذها المبشرون ، وقد قال الكاردينال (لافيجرى) إن الدراويش البسطاء والتجار الذين يجوبون تلك الأقطار ينشرون الاسلام أينما حلوا ، فيقبل عليهم الناس أيما إقبال ، ويعاهدونهم على الاسلام دون أية مقاومة .

٢ ـ بساطة العقيدة الدينية وسهولة فهمها ويسر تكاليفها الشرعية وملاءمتها بشكل قوى لحال الزنوج وظروفهم .

٣ ـ اعتقاد الأفريقيين أن المسيحية هى دين البيض المستعمرين ، تحمل معها الظلم والاستعباد والتفرقة ، والنظرة الساخرة لغيرهم ، بخلاف الاسلام دين الرحمة والعدل والمساواة يقول (موريل) فى كتابه عن نيجيريا .

إن الاسلام لا يتطلب من وجهة نظر أهل نيجيريا أن يفقد أحد قوميته ، ولا أن يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة ، وليست هناك هوة بين الداعى الى الاسلام والمهتدى اليه ، فلاهما متساويان أمام الله ، لا نظريا فقط بل عمليا أيضا ، وينفذ مبدأ التآخى الانسانى تنفيذا عمليا رائعا ، وإن انتشار الاسلام

الذى نشهده اليوم فى نيجيريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرا اجتماعيا عظيما ، ويمنح الاسلام من يدخل فيه منزلة أرقى وفكرة أسمى من مكانة الانسان من العالم المحيط به ، ويحرره من ربقة الأحكام والخرافات ٠

٤ ـ الداعية المسلم عندما يحل ببلد يعد نفسه مواطنا كبقية المواطنين ، يندمج معهم بالمعاملة والمصاهرة والاشتراك فى الخدمات العامة للبلد ، ويكون سلوكه نفسه من أهم العوامل فى جذب الأهالى نحو الدين ٠

٥ ـ الاسلام يعلم أتباعه حب الحرية والاعتزاز بالوطن وكراهة المستعمرين ، وهذه النغمة محببة الى كل انسان ، وتتحرك لها عواطفه ، ويميل الى من ينادى بها والى الدين الذى يقررها ويدعو اليها ٠

٦ ـ كما أن الاسلام يحمل عوامل الرقى والحضارة، ويرتفع بمستوى الأفريقى الى مكان عال فى الفكر والخلق والعادات ٠ يقولّ (أرنولد) [١] :

إن مجرد الدخول فى الاسلام يدل ضمنا على الترقى فى الحضارة وأنه خطوة جد متميزة فى تقدم القبيلة

---

(١) تاريخ الدعوة ص ٣٩٦

الزنجية عقليا وماديا ، وقد اتضح ما تقدمه حضارة أفريقيا الاسلامية الى الزنجى الذى دخل فى الاسلام وضوحا يبعث على الإعجاب فى العبارات الآتية :

إن أقبح الرذائل وهى أكل لحوم البشر ، وتقديم الانسان قربانا ، ووأد الأطفال أحياء ، تلك الرزائل قد اختفت فجأة والى الأبد والذين كانوا يعيشون عراة بدءوا يرتدون الملابس ، بل يتأنقون فى ملابسهم ، والذين كانوا لا يغتسلون بدءوا يغتسلون ، بل يكثرون من الاغتسال لأن الشريعة المقدسة تأمرهم بالطهارة.

٧ ـ وكان لنشاط الجمعيات الدينية الحديثة أثره البارز فى نشر الاسلام فى هذه القارة ، ومن أخطرها الجمعية الخيرية الاسلامية بشرقى أفريقيا ، التى يشرف عليها الإسماعيليون ، فقد أنشأت مساجد ومدارس وكليات وقامت بأعمال كثيرة حببت اليها الألوف من الأهالى ، الذين حملوا لواء الدعوة وتوغلوا به فى داخل القارة مسافات بعيدة .

كما كان لإبطال تجارة الرقيق وإنشاء السكك الحديدية وتأمين الطرق أهمية فى يسر الانتقال بالدعوة مع القوافل والتجارة .

الدعوة فى أوروبا وأمريكا :

تعال معى أيها القارىء لنصاحب ركب الدعوة فى العالم الغربى ، فقد فتحت أسبانيا فى القرن الأول الهجرى وعاش فيها الاسلام نحو ثمانية قرون ، حتى أصدر فرديناندو إيزابيلا سنة ١٥٠٢ مرسوما بإلغاء شعائر الدين الاسلامى فى جميع أرجاء البلاد ، حتى خرج العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠ م .

وقد كتبت أسبانيا فى هذه المدة صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ومنها تلقى العلم طلابه من جميع أصقاعها بعد أن كانت البلاد ترزح تحت نير الاضطهاد، وتعيش فى جو خانق من الفساد الخلقى وتحكم السادة فى العبيد ، حتى أن مؤرخى المسيحية قالوا : لقد ظهر أن الحكم الاسلامى كأنه عقاب نزل بهؤلاء الذين ضلوا الطريق السوى ، واتجهوا نحو الرذيلة .

تحول كثير من الأهالى الى الاسلام ، ونعموا بمبادئه الخالدة ، وكان هناك انسجام ومصاهرة وإقبال على تعلم اللغة العربية ، ونبغ كثير منهم فى آدابها ، حتى المسيحيون واليهود منهم ، وتسمى كثير من هؤلاء بأسماء عربية ، وقلدوهم فى بعض النظم الدينية كالختان ، كما أثرت العقيدة على أفكار

الرهبان ، فغير كثير منهم رأيه فى عيسى الذى كانوا يسمونه ابن الله ، ومنهم (اليباندوس) أسقف طليطلة» و « فيلكس » أسقف أورجيل ، وكان من أثر ذلك عقد مجمع طليطلة سنة ٩٣٦ م للنظر فى هذه الأفكار .
يقول أرنولد :

وقد بلغ من تأثير الاسلام فى معظم الذين تحولوا اليه من مسيحيى أسبانيا مبلغا عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة ، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته وفنه الذى استولى على عقولهم ، وبهر خيالهم ، كما وجدوا فى الفروسية العربية مجالا فسيحا لإظهار بأسهم ، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق كريم ، تلك الحياة التى ظلت مغلقة فى وجوه الأسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية وإخلاصهم لها ، أضف الى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة اذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التى لا يبعد أن تكون دراستها فى حد ذاتها باعثا على الدخول فى دينهم (١).

وكما دخل الاسلام ومدنيته الى أوروبا من الأندلس دخلا من صقلية ، وتوغلا فى إيطاليا ، وحاصر العرب

---

(١) تاريخ الدعوة ص ١٦٤

روما مقر الحبر الأعظم ، حتى إن البابا يوحنا الثامن «٨٧٢ ـ ٨٨٢ م» ظل يؤدى الجزية مدة سنتين ، ومكث حكم الاسلام قائما نحو مائة وثلاثين سنة ، حتى أخذ النورمانديون هذه الجهات نهائيا سنة ١٠٩١ م ٠ وعن هذين المنفذين أخذت أوروبا الحضارة ٠

ومما يدل على ذلك ما يأتى :

١ ـ أن « فردريك الثانى » ملك سبيليا وألمانيا فى القرن الثالث عشر ، وهو أول من أقام حكومة نظامية فى أوروبا سنة ١١٩٢ ، أنشأ جامعة فى نابولى سنة ١٢٢٤م على نظام جامعة قرطبة ، وتعلم العربية ودرس علومها وآدابها ، وحذق الرياضة والطب والفلسفة والطبيعة على أيدى أساتذة العرب تلاميذ ابن رشد ، واصطحب معه الى إيطاليا زمرة من العرب والمسلمين ساعدوه فى تنظيم حكومته ٠

٢ ـ أن البابا الأكبر « سلفستر الثانى » سنة ٩٩٩ م وكان عالما دينيا كبيرا ، رحل الى الأندلس فى أيام الخلافة الأموية وحصل من شيوخها على الإجازة فى التدريس والرياضة والفلك ، وعاد الى بلاده حيث ألف كتابا فى الحساب ، فكان أول من نقل هذا العلم الى أوربا ٠

٣ - أن أول مستشرق انجليزى ، وهو « أديلارب » طوف سنة ١١٢٠ م فى الأندلس وصقلية وسوريا ، وترجم عن العربية مبادىء اقليدس وكتـاب الخوارزمى فى الحساب ، وكان له نصيب كبير فى إنشاء جامعة باريس وغيرها .

٤ - أن « روجر الأول » ملك صقلية سنة ١١٢ م تلقى التاريخ الطبيعى على يد العرب ، و «الفونس العاشر» ملك قشتالة درس العربية ، وأمر بنقل علوم العرب ، ونافسه فى ذلك ملوك أوربا .

٥ - أن الراهب الإنجليزى « روجر بيكون » المتوفى فى القرن الثالث عشر ، درس علوم العرب ، وتشبع بطريقتهم العلمية فى البحث ، فنبذ منطق أرسطو ، وقرر أن الطريقة المثلى للوصول الى الحقائق العلمية هى طريقة العرب ، (شاهد واختبر) .

٦ - أن الملك « فيليب البافارى » بعث الى الخليفة هشام الأول يستأذنه فى إيفاد بعثة الى الأندلس لدراسة نظم التعليم وأساليب الإدارة والحكم ومظاهر المدنية ، فأذن له ، بل أرسل خبراء من العرب لاستشارتهم فيما يريد ، وكذلك صنع غيره من الملوك ، وكانت انجلترا أشد دول الشمال حرصا على ذلك ، فكانت تبعث أولياء

عهودها الى الأندلس لتلقى هذه المعارف الجديدة بل أرسل الملك « جورج الثانى » ابنة أخيه ملك «دومانت» على رأس بعثة مكونة من بنـات الأمراء واللوردات حوالى عشرين فتاة لدراسة آداب السـلوك والفنون الراقية التى تتعلق بالمرأة ٠

وكان الأسطول الهولنـدى الذى قهـــر الأسطول الانجليزى فى لشبونة سنة ١١٥٢م من صنع أيد عربية، أما قائده فهو أميرال البحر (طارق) ومعظم السدود وجسور الأنهار فى انجلـترا وأوربا أنشأهـا أيـدى مهندسين عرب ، وخاصة جسر هشام الذى سمى باسم الخليفة هشام الثانى بناه مهندس عربى فوق نهـر التيمس ٠

ودخل الاسلام أوروبا أيضا فى القرن الرابع عشر على يد الأتراك ، الذين استولوا على أجزاء كبيرة من جزيرة البلقان ، حتى فتحت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ٠ وكان عهد سليمان القـانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٧ م) عهد توسع ، ولم تتوقف فتوحات العثمانيين إلا أمام أبواب فيينا سنة ١٦٨٣م ٠

وعندما فتحت القسطنطينية حـرم محمد الفاتـح اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا ، ومنح البطريق وأتباعه امتيازات كبيرة ، وكانت هذه المعاملة مـن

أهم الأسباب التى جعلت الأغـريق يؤثرون حـكم المسلمين على المسيحيين الذين ظلموهم واستبدوا بهم كثيرا ، وقد اشـتهر مراد الثـانى بعنايته فى تحقيق العدالة ، وبإصلاحه للمفاسد التى سـادت فى عهـد الأباطرة الأغريق .

واهتم الأتراك بنشر الاسـلام بالوسائـل السلمية وكانوا يحتفلون بمن يدخل فى الدين فيـكون ذلك حافزا لغيره أن يسلم مثله يقول الـكسندروس عن المسلمين الأتراك .

لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية لخجلنا من جحودنا ، سواء فى عبادتنا أو فى تراجمنا ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا ـ فلا ريب أن هؤلاء سيقيمون الحجة علينا ، ولا ريب أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهـم هى الأسباب الرئيسيـة لنمو الدعوة المحمدية .

ولو نظرنا الى معظم دول أوربا الحالية لوجـدنا فيها جاليات اسلامية نزح معظمها من آسيا وأفريقيا ، وبجهودها دخـل أوروبيون كـثيرون فى الاسـلام ، واستطاعوا أن يتفاعلوا مع هذا الدين بحضارتهـم وتقاليدهم بعد أن رأوا فيه المرونة وقيامه على الفطرة والعقـل .

بل إن بعض المفكرين الأوروبيين الذين لم يسلموا قال عندما عرف حقيقة الاسلام وأخلاقه العالية ونظامه الاجتماعى السياسى المتين : إذا كان هذا هو الاسلام، فنحن إذاً مسلمون ٠

ولو أذن للاسلام أن يمد رواقه على هذه البلاد عند فتح الأندلس لكانت الحضارة قد تقدمت للانسانية بخيرها قبل ذلك بكثير ، غير أن الأقدار جعلت المسلمين يقفون عن زحفهم بعد أن انتصر « شارل مارتل » على عبد الرحمن الغافقى فى معركة « بواتييه » يوم السبت ٨ من شعبان سنة ١١٤ هـ (اكتوبر سنة ٧٣٢م) تلك المعركة التى يقول فيها « كلود فارير » الأديب الفرنسى : فى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدينة ثمانية قرون الى الوراء ٠

ويقول « شامبيون » مدير مجلة « بارلمنتير » : لولا انتصار جيش مارتل الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولما كابدت المذابح الأهلية التى نشأت عن التعصب الدينى المذهبى ، ولولا ذلك الانتصار البربرى علي العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدينة ثمانية قرون ، إننا مدينون للشعوب العربية بكل

محامد حضارتنا فى العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة فى الفضائل ، وحسبها أنها مثال الكمال البشرى مدة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية ، وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى .

وأخيرا أقول لك أيها القارىء : إن الاسلام لم يقف عند هذا الحد ، بل تخطى العالم القديم الى العالم الجديد ، ويحكى التاريخ أن جماعة من المسلمين رغبوا فى نشر الاسلام وراء البحار ، أطلق عليهم اسم المغرورين لجرأتهم وإقدامهم على هذا الأمر الخطر ، وكأنه كان يرن فى أذنهم قول عقبة فاتح شمالى أفريقية حين نزل البحر بفرسه وأقسم أنه لو يعلم أن هناك أرضا وراء هذا البحر لخاضه حتى يصل اليها لينشر دين الله . كان هؤلاء ثمانية أقلعوا من لشبونة فى القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى ، وساروا نحو الغرب حوالى أحد عشر يوما ثم عادوا يحملون أخبار عالم جديد لم يعرفوه من قبل ، وهو ، وإن لم يكن على التحقيق أمريكا ، فهو جزر كانت مجهولة .

وفى القرنين الأخرين وصلت جاليات الى أمريكا الشمالية والجنوبية وأقاموا هناك ، وأسسوا جمعيات ومساجد فى أشهر المدن ولهم سمعة طيبة فى كل حقل يعملون فيه من حقول التجارة والصناعة وغيرها ، واستطاعوا بنشاطهم أن يحولوا عددا من أهالى تلك البلاد الى الاسلام ، أو على الأقل يفتحوا عيونهم عليه ويبدون السحب الكثيفة التى كانت تحول دون معرفتهم لحقيقته .

وبعد فقد تبين من هذا السرد الموجز لحركة الاسلام فى مده وانتشاره بمبادئه السامية أن الاسلام له أعوان وأنصار فى كل جهات العالم ، وأن البيئات التى وجدوا فيها لم تكن حائلة دون تطبيق تعاليمه ، وأن أجناسهم وألوانهم ولغاتهم لم تقف حائلا دون اعتناق هذا الدين والتفاعل مع مبادئه ، وأن له فى بعضها تاريخا قديما لازمها قرونا عدة ، لم تزده الأيام إلا قوة فى نفوسهم واعتزازا به ، وهذا من أكبر الأدلة الواقعية على عالمية الدين الاسلامى وحيويته واتفاقه مع جميع الحاجات البشرية فى كل الجماعات الانسانية .

يقول (إيتين دينيه) ، وسليمان ابراهيم الجزائرى فى كتابهما عن السيرة النبوية : فدين محمد قد أكد إذاً من الساعة الأولى لظهوره وفى حياة النبى أنه دين

عام ، فاذا كان صالحا لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ولكل درجة من درجات الحضارة وهو على ما فيه من البساطة المتناهية بالنظر لمذهب المعتزلة ، والتشدد بالنظر لمذهب الصوفية : يؤدى للعالم الأوربى ، من غير أن يعوق حرية فكره المطلقة ، كما يؤدى للزنجى السودانى ، الذى ينتشله من عبادة الأوثان الباطلة ، هداية وتأييدا ، وهو يرفع نفس التاجر الانجليزى ، الذى يرى حياته فى العمل ، ويعتبر الوقت من ذهب ، بمقدار ما يرفع نفس الحكيم المتصوف والشرقى المتأمل فى بدائع الصنع ، كما يرفع نفس الغربى المأخوذ بسحر الفن والجمال بل هو يفتن الطبيب العصرى أيضا بما فيه من الطهارات المتكررة وتناسق الركوع والسجود ، اللذين هما ليسا فى إفادتهما الجسم نماء باقل من إفادتهما النفس صحة وسلامة (١) .

لقد حار المفسرون فى تعليل ظاهرة المد الدائم للاسلام ، وراح كل يفسر تفسيرا محدودا من وجهة نظره ، فمنهم من يرجع ذلك الى العوامل الذاتية للاسلام فى عقيدته وشريعته ، ومنهم من يرجعها الى الظروف السياسية والاجتماعية للبلاد التى زحف

(١) مجلة الأزهر : مجلد ١ ص ١٥٩

الاسلام اليها ، دون سلطة قاهرة أو نفـــوذ قوى ، ومنهم من يربط ذلك بظواهر أخص لا تصلح أن تكون سببا عاما فى هذه القوة الغالبة للدعوة ، وفى موقفها الثابت أمام الزلازل التى لم تنل من سريانها النفاذ السريـع .

ولكن السبب الحقيقى الجامع هو أن الاسلام بطبيعته دين عالمى فى عقيدته ومبادئه ، يجمع كل الأجناس تحت لوائه ، وتعاليمه التى تشعر الانسان بوجوده الـكريم ، وتوفى بجميع مطالبه وحاجـاته الروحية والمادية ، ولا عجب فى ذلك فهو دين الله الذى أحكم صنعه لهداية خلقه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة .

هل انتشر الاســلام بالسيف ؟

فى غمرة الحيرة فى تعليل انتشار الاسلام بسرعة لم تطاوع نفس الحاقدين على الاسلام أن يقولوا الحق فعزوا السبب الى الغزو الحربى واستعمال القهـــر والاكراه على اعتناق الدين ، وما زال المحدثون من الحانقين يرددون هذه الفرية لينالوا من عظمة الاسلام فى جوهره النقى الصافى الذى أخـذ ألبـاب النـاس

بمبادئه ، فأعجبوا به أيما إعجاب واختاروه دينا لهم، تسكن اليه نفوسهم وتطمئن به قلوبهم ، وتتحرر به عقولهم ويستقيم سلوكهم ·

إن العقائد لا تغرس بالإكراه أبدا ، لأن العقيدة انفعال النفس بقضية من القضايا ، والنفس تأبى أن تهضم شيئا تمجه طبيعتها ، قال تعالى حاكيا ما كان من نوح مع قومه: «أنلزمكموها وأنتم لها كارهون»(١) والاكراه على اعتناق الأفكار قضاء على الحرية التى مجدها الاسلام بما لا يوجد له مثيل فى أى دين ولا فى أى تشريع سماوى أو أرضى وهو طعن أيضا فى كرامة الانسان وأهليته للخلافة فى الأرض ·

وقد جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة تقرر الحرية وتشيد بها وتعترف بكرامة الانسان وقدره ، وتصرح بأنه لا يجوز قهر انسان على اعتناق مبادىء الاسلام فمن ذلك :

١ ـ قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (٢) وقد نقل ابن جرير الطبرى عن ابن عباس فىسبب نزولها أن رجلا من الأنصار وهو أبو الحصين من بنى سالم بن عوف ، كان له ولدان

---

(١) سورة هود : ٢٨

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦

تنصرا قبل مبعث النبى ﷺ ، ثم قدما المدينة فى نفر من الأنصار يحملون الزيت ، فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتى تسلما ، فأبيا ، فاختصموا الى رسول الله ﷺ فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى فى النار وأنا أنظر ؟ فنزلت هذه الآية .

٢ ـ قوله تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (١) .

٣ ـ قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » (٢) .

٤ ـ قوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (٣) .

فمهمة النبى هى التبليغ فقط ، وهداية الناس الى الاسلام بمعنى اعتناقهم له لا يمكن أن يقوم به الرسول فذلك من رحمة الله وحده : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » (٤) .

---

(١) سورة الكهف : ٢٩
(٢) سورة يونس : ٩٩ ، ١٠٠
(٣) سورة الغاشية ٢١ ، ٢٢
(٤) سورة القصص : ٥٦

٥ ـ قوله تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم » (١) •

فاعتناق الاسلام يـــكون بمجرد الحريـــة ومحض الاختيار دون قهر وإجبار •

٦ ـ لما أعطى النبى الراية لعلى يوم خيبر قال : يا رسول الله أقاتلهـم حتى يـكونوا مثلنا ؟ قال : « لا ، انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه • فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم » (٢) •

فعلى ضوء هذه النصوص وغيرها كانت دعـــوة النبى ﷺ الى الاسلام ، وعلى هديه سار أصحابه من بعده ، وقد اختلط المسلمون بأهل الكتاب من اليهود والنصارى وكان بينهم نقاش كبير أمر فيه المسلمون بالتزام الجادة واتباع الطريق الأحسن ، وهو إظهار محاسن الاسلام وأثره فى أخلاق المسلمين ومعاملاتهم، فذلك خير دعاية له • وقد دخل أهل مكة فى الاسلام دون أن يعلو رءوسهم سيف ، أو يهددوا بما يلجئهم الى اعتناق الدين •

---

(١) سورة التكوير : ٢٧ ، ٢٨

(٢) رواه مســـلم •

ذكر الشيخ محمد عبده : أن غير المسلمين كانوا اذا فتحوا بلدا عينوا دعاة لنشر دينهم بكل ما أوتوا من قوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين . بل كانوا يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة، فيغريهم ذلك على الاسلام ، وأن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا ، عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفا ، وبلغ أمر المسلمين فيما بعد أنهم لم يقبلوا إسلام راغب فى الدين إلا بين يدى قاض شرعى يقر أمامه أنه أسلم بلا إكراه . ووصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزيز مثل أولئك العمال ، وقد أثر عنه أنه قال له : ما بعث محمد جابيا ولكن بعث هاديا (١) .

على أن الاسلام اذا كان يفرض فرضا على الناس فكيف اعتنقه المغول والتتار وهم فى أتم قوة وأعظم بطش ، وقد جاءوا للقضاء على الاسلام فانقلبوا مسلمين .

---

(١) رسالة التوحيد ١٧٠.

ولو كان انتشار الاسلام بالقهر فكيف يفسر انتشاره بسرعة فى أيام الضعف السياسى والعسكرى للدولة الاسلامية ؟ لقد كان أثر الرحالة والتجار والطرق الصوفية بالغا مبلغا عظيما فى نشر الاسلام فى أفريقيا وآسيا بالطريق السلمى ، دون إغراء أو تهديد .

ولو نظرنا الى خريطة العالم الاسلامى اليوم لرأينا أن البلاد التى قلت فيها حروب الاسلام هى التى يقيم فيها أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد إندونيسيا والهند والصين وسواحل القارة الإفريقية وسهول الصحراء الواسعة ، فإن عدد المسلمين فيها يقرب من ثلثمائة مليون ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم ، فى الوقت الذى فيه البلاد التى كانت مسرح الفتح الاسلامى ، وهى العراق والشام لا يزيد عدد المسلمين فيها على عشرة ملايين ، يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسحيين واليهود والوثنيين وغيرهم (١) .

وقد قرر العلماء أن الحروب التى أرغم النبى وأصحابه على خوض غمارها كانت لغرضين ليس منهما الإكراه على الدين :

---

(١) حقائق الاسلام للعقاد ص ٢٣٢

أولهما : الدفاع عن العقيدة وعن حرمات المسلمين .

وثانيهما : مقاومة القوة التى تقف فى طريق الدعوة التى أمروا بتبليغها ، وفعل النبى ﷺ والخلفاء الراشدين المهديين من بعده هو الحجة فى هذا الموضوع، وما يحدث من غيرهم لا يحتج به على الاسلام ، وإنما هو تصرف شخصى قد يخطىء وقد يصيب .

قال تعالى فى بيان غاية القتال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(١) . فالغاية من القتال إعطاء الجزية للإسهام بها فى تكاليف الدفاع عن حرياتهم وإظهار حسن نيتهم نحو الاسلام، وهى مبلغ رمزى ضئيل لا يدفعه إلا القادرون ممن يصلحون للقتال . وليست غاية القتال هى الاسلام ، فقد نصت الآية على ذلك « حتى يعطوا الجزية » وليس فيها « حتى يسلموا » .

وقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » (٢) ، فالغاية هى القضاء على الفتنة ، أى

---

(١) سورة التوبة : ٢٩
(٢) سورة البقرة : ١٩٣

دعم أركان السـلام فى المجتمع ، وذلك كما يكون بالاسلام يكون بالجزية أو بالعهد ، ولو كان القتال لفرض الاسلام على الناس ما أمر الرسول بترك الرهبان والنساء والصبيان . وأما قوله تعالى : « ويكون الدين لله » فمعناه أن يظهر أمره ويعلو صوته ، ولا يتوقف ذلك على أن تكون له الأكثرية العددية فى النـاس ، فظهوره بظهور الحق الذى هو فيه من استقامة مبادئه، وصدق الهدى الذى جاء به .

على أن من جاءنا من المحاربين طالبا الأمان ليسمع كلام الله لا يجوز أن نقتله أو نكرهه على الاسلام ، بل نبلغه الدعوة ونحافظ على حياته وأمواله وكل حقوقه حتى يرجع الى بلده ويبلغ مأمنه ولو لم يسلم (١) .

إن نظرة الاسلام الى الحرب نظرة طبيعية واقعية، فهى مكروهة للنفوس التى تحب السلامة ، كما قال سبحانه « كتب عليكم القتال وهو كره لكم »(٢) وينهى المسلمين عن مجرد التمنى لخوض معركة مع العدو ، ففى الحديث « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا » (٣) .

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية ص ٦٩ ، ٧٤

(٢) سورة البقرة : ٢١٦

(٣) رواه البخارى ومسلم .

والحرب ضرورة تقدر بقدرها « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » (١) « فإن قاتلوكم فاقتلوهم » (٢) . فالمسلمون كانوا يلجئون الى الحرب إلجاء وكان بودهم ألا تكون حرب أبدا ، ولكنها سنة الله فى خلقه ، كما يقول سبحانه « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (٣) ، خاضوا غمارها للغرضين المذكورين آنفا .

ففى الغرض الأول قاتلوا من تعدى عليهم بالقتال فعلا ، وكذلك من استعدوا للشروع فيه ، وذلك مبادرة الى لقائهم قبل المباغتة .

وهذا تطبيق للمبدأ العام فى الانتصاف « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٤) « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٥) .

ومن الغزوات لهذا الغرض : أحد والأحزاب ومؤتة، وغطفان ودومة الجندل ، وغزوة بنى المصطلق ، وخيبر ، وتبوك وغيرها ، وبيان الأسباب الحقيقية ليس هذا محله فيطلب من كتب السيرة .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠

(٢) سورة البقرة : ١٩١

(٣) سورة البقرة : ٢٥١

(٤) سورة البقرة : ١٩٤

(٥) سورة الشورى : ٤٠

وفى هذا الغرض من الحرب قاتل المسلمون من تعدوا على حرية إخوانهم ليخلصوهم من الظلم ، كما قال تعالى « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » (١) . وكذلك

قاتلوا من نكثوا العهد وغدروا ، كفتح مكة ، وغزوة بنى قينقاع وبنى النضير .

وفى الغرض الثانى وهو تأمين طريق الدعوة كانت فتوح الشام وفارس وغيرهما ، الى جانب وجود حالة الحرب المستمرة من أول الأمر وكان الفرس يريدون قتل النبى ﷺ كما سبقت الاشارة اليه عند إرسال الكتاب اليه .

ولما كانت الدعوة الاسلامية لتأمين حريات الناس وتوفير الأمن لهم ، وتخليصهم من الشرك والظلم والفوضى ، كان لابد أن تحاط الدعوة بقوة تحميها ، وتزيل العقبات من طريقها ، قال تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » (٢) فالحرب الاسلامية حرب حق من أجل الحق ، ولو عمقنا النظر

---

(١) سورة النساء : ٧٥

(٢) سورة الحج : ٤٠

فى هذا المبرر لرأيناه أيضا يندرج تحت الغرض الأول، وهو رد العدوان والدفاع عن العقيدة والوطن والحرمات .

ولم يحدث أبدا أن سارت الدعوة ومعها السلاح لأول مرة لتزيل به العقبات ، بل مهد لها النبى أولا بارسال الكتب الى الرؤساء من الملوك والأمراء ، ولم يمكنه هؤلاء من توصيل الدعوة لمن يتشوقون اليها فكان لابد من إبعاد هذه العقبات من الطريق ليصل النور الى الضالين ، بل بلغ النبى الدعوة بالقرآن ، كما قال تعالى « وجاهدهم به جهادا كبيرا »(١) على الطريق الذى رسمه الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان تبليغها مقتضيا لتنقل وأسفار واتصالات بالناس ، فلابد من حماية الدعوة اليها من بطش المكذبين ، وهو حق طبيعى تقره جميع العقول والأديان .

على أن مما يدل على أن حرب الاسلام لم تكن تعطشا للدماء ولا حبا للانتقام ، التوصية بعدم التعرض لغير الحاملين للسلاح من الرهبان والنساء والصبيان ، والتوصية بالرحمة البالغة فى الحرب ، فهى كالعملية الجراحية ، ضرورة تقدر بقدرها ، والتوصية بقبول

---

(١) سورة الفرقان : ٥٢

الصلح إن عرضه الأعداء ، وكذلك الوصية بعدم تخريب العمران لغير ضرورة الحرب ، والإحسان الى الأسرى، وغير ذلك من آداب الحرب العظيمـــة التى فصـلها العلماء .

فالإسلام أباح الحرب ولكن حاطها بملطفات بما لم تبلغ اليه مدنية القرن العشرين ، ولم يكن من أغراضها أبدا حمل الناس على الاسلام ، فقد تبين أن العقائد لا تغرس بالإكراه ، ولقد أثر عن عمر رضى الله عنه أن عجوزا جاءته فى حاجة لها وكانت غير مسلمة ، فدعاها الى الاسلام فأبت وتركها عمر ، وخشى أن يكون فى قوله وهو أمير المؤمنين ، إكراها لها ، فاتجه الى ربه ضارعا معتذرا : اللهم أرشدت ولم أكره ، وتلا قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ».

ولم تكن الحرب ضد الكفار لمجرد كفرهم أبدا ، بل لرد عدوانهم كما سبق ، فإن المبدأ العام مع المخالفين فى العقيدة هو : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم »[1] وقد عاش مع النبى كفـار كثيرون وتعـامل معهم بالحسنى ما داموا يبادلونه هذه المعاملة ، قال تعالى:

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم

---

(١) سورة التوبة : ٧

يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » (١) .

وليس الاسلام وحده هو الذى جاء بالجهاد والحرب للدفاع وتأمين الحريات ، فقد كانت الحرب فى القديم وما تزال وسيلة من الوسائل لحل المشاكل الاجتماعية الى عهدنا هذا ، مع بلوغ الانسانية أشدها ونيل العقول رشدها ، فالحياة لا تبقى والحقوق لا تصان إلا بقوة تحميها .

ولعل هذا القدر كاف فى نقض هذه الشبهة أو رد هذا الطعن الذى يوجهه الأعداء للإسلام من كونه انتشر بالسيف لا بصدق مبادئه كما يقول المسلمون .

---

(١) سورة الممتحنة : ٨

جبهـات المقاومة لعالمية الاسـلام

لقد تعرضت الدعوة الاسلامية لعدة مصادمات من أول يوم نادى فيه الرسول قومـه الى التوحيـد ، واتخذت هذه المصادمات عدة ميادين ، فهى لم تقف عند حد التكذيب للدعوة ، بل تعدت الى ميدان العمل الايجابى لوقف تيار الاسلام الجارف ومده الواسع ، وحيكت له عدة مؤامرات من داخل المجتمع الـذى يعيش فيه النبى وصحبه ، على يد المنافقين واليهود وغيرهم من الرعايا الموجودين بين المسلمين ، ومن خارجه فى الدول المحيطة النافسة على القوة الجديدة التى غطت على كل قوة فى هذه المنطقة .

وكان للأعداء على مختلف ألوانهـم وميادينهـم أساليب منوعة فى هذا السبيل ، وقد سمعنا فى التاريخ عن الغزوات التى وجهت الى الاسلام ، إما بالسلاح المادى فى الميدان المكشوف ، وإما بالسلاح المعنوى من وراء الجدر ، فمرة بالتشكيك فى أصل الدين ، وبالدعوة الى الإلحاد ، ومرة بالغزو الثقافى لتحل الآراء الهدامة محل الآراء الدينيـة ، وأخـرى بالغـزو الخلقى والاجتماعى لينسلخ المسلمون من مقومات شخصيتهم

الأصيلة ، وكذلك بالنظم السياسية وقواعد الحكم بمسمياتها المختلفة ، وعناوينها الخلابة .

وعلى الرغم من كل هذه المصادمات فإن الدعوة العالمية ما تزال ثابتة صامدة ، بل مندفعة بقوة تخطت كل الحواجز والعقبات ، لأنها - كما قدمنا - تحمل عوامل قوتها فى نفسها ، غير أن هذا الثبات وهذه المواجهة يختلفان كيفا حسب ما يكون عند المسلمين من إيمان وتعلق بالدين وغيرة على الدعوة اليه .

دعنا من المقومات العنيفة التى واجهتها الدعوة أيام الرسول ﷺ من قريش ومن اليهود وغيرهم ، فكتب السيرة وفت هذا الموضوع حقه ، والمقام هنا مقام إيجاز يكفى فيه أن نعطى لمحة خاطفة للعبرة والعظة .

حدثت بعد وفاة النبى ﷺ ، مصادمات حربية معروفة ، وبخاصة مع الفرس والرومان ، ثم كانت الفتوح الممتدة شرقا وغربا والى كل البلاد ، كما عرفت من السرد الموجز لسير الدعوة . ومع المصادمات الحربية كانت مؤامرة اغتيال عمر بن الخطاب ، والفتنة التى استشهد فيها عثمان ، والمصادمات الداخلية بين جبهتى على ومعاوية ، واستغلال ذلك

كله للقضاء على الدين ، حيث ظهرت الفرق ولعب لعبته عبد الله بن سبأ اليهودى ليطيح بالعقيدة الاسلامية الموحدة لكلمة المسلمين « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (١) .

وكانت الشعوبية أصبعا من أصابع الهدم لبناء الاسلام ، والعودة به الى عهد الجاهلية حيث التعصب للأنساب والأحساب ، واتخذت هذه الحركة مركزها فى فارس على الباب الشرقى لدار العرب ، فظل بعض الفرس متمسكين بماضيهم البائد ، ممتلئة قلوبهم حسرة على ضياع مجدهم السياسى ، على الرغم من قيام دولة إسلامية كبيرة فى بلادهم وعلى أكتافهم وبجهودهم .

لقد تجنب الشعوبيون العداء السافر مع العرب أولا، وانتهزوا الفرصة المواتية للأساليب الخفية الأخرى ، فقد عمد بعضهم الى وضع كتب فى مثالب العرب والحط من شأنهم ، حتى قال قائلهم اسماعيل بن سيار ، الذى لم يشكر تكريم الخلفاء له :

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به
ولى لسان كحد السيف مسموم

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٢

من مثل كسرى وسابور الجنود معـــا
والهـرمزان لفخـــر أو لتعظيـم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا
وهم أذلوا ملوك الـترك والـروم
هناك إن تسألى تنبى بأن لنـــا
جرثومة قهـرت غـــر الجـراثيم

وقد رأينا فى خطبت زياد بن أبيه ما يشير الى هذه الفتنة الشعوبية : إياكم ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، كما كان للحجاج موقفه الشديد إزاءها أيضا ٠

لقد انتهز قوم من « راوند » فرصة قيام أبى مسلم الخرسانى بالدعوة الى العباسيين فروجوا معتقداتهم القديمـة القائـلة بالحلول والتناسـخ ٠ وأرادوا أن يستغلوها فى التقرب الى أولى الأمر ، فزعموا أن روح الله انتقلت الى على وأبنائه من بعده ، حتى وصلت أخيراً الى أبى مسلم الخرسانى الثائر ضد الأمويين ٠ واستمروا فى فتنتهم حتى نادوا بأن المنصور العباسى هو ربهم الأعلى ٠

ثم أخمدت هذه الفتنة ، كما أخمدت فتنة الخرمية ـ نسبة الى خرما زوجة مزدك زعيم الإباحية القديمة عند الفرس ـ عندما استعان هؤلاء بالبيزنطيين للنيل

من الدولة الاسلامية ، وكذلك قضى علــى جماعــة الحشاشين بالظاهر والبــاطن والــذين قادوا حركــة اغتيالات سرية ، كما أخمدت حركة القرامطــة التى سعت فى الأرض فســادا ، ولم تنــج منهــا الأراضى المقدسة ٠

وقد لعب الزنادقة أيضا دورا خطيرا ضد الاسلام وضد العرب ، عن طريق التشكيك فى الأصول الثابتة، والدعوة الى التحلل من القيود ٠

واعتمدوا على المانونية إحدى الديانات القديمة ، وجرحوا رجال العرب وفقهاء الاسلام ، ومجدوا الفرس وتاريخهم ٠ ووجــد هؤلاء ، مسرحا لنشاطهم بيوت البرامكة الذين شجعوا للهو ومجالس الغناء بما فيها من منكرات ٠ حتى قال قائلهم :

يبكى على طلل المــاضين من أسد
لادر درك قل لى من بنو أســـد
ومن تميم ومن قيس ولفهمـــا
ليس الأعاريب عند الله من أحـــد
دع ذا ، عدمتك ، واشربها معتقة
صفراء تفرق بين الروح والجســـد

والى جانب هذه الحركات التى ظهرت فى وســط المجتمع الاسلامى وجدت حركات خطيرة فى الخــارج

لخنق الدعوة الاسلامية ، وحصرها فى دائرة ضيقة ، والعمل على إضعافها حتى تموت . وكان العـداء السياسى ظاهرا واضحا فى كثير من هذه الحركات ، فاضطر المسلمون الى خوض معارك طاحنة لحمايـة عقيدتهم وصيانة حدودهم وتأمين طريق دعوتهـم ، كما كان هناك عداء دينى وخلقى واجتماعى لهـدم الأساس المتين الذى قام عليه بناء الدولة الاسلامية ، وجد منافذ الى قلب المجتمع وأتباعـا وأذنابا مـن الموتورين من الاسلام والعرب لسبب من الأسباب .

المقاومة السياسية :

لقد ظلت الدولة الاسلامية بعد انتقال الرسول ﷺ الى الرفيق الأعلى ، تتابع سيرها ، حامية نفسها من الأعداء بالتسلح ، حتى جاء الطوفان من الشرق يدفعه التتار بجبروتهم ، فى وقت كانت الخلافة العباسية فيه أضعف ما تكون عن مقاومته ، فسقطت بغداد سـنة ٦٥٦ هـ . وقتل كثير من الفقهاء وعظماء الدولة ، وأحرقت قبور الخلفاء ، وألقى بالكتب فى دجلة .

ثم أوت الخلافة الى مصر حيث بايع أهلها سنة ٦٥٩ المستنصر بالله ، ولكنها كانت خلافة صورية لا تستطيع شيئا . وقد شاء الله أن يرد هؤلاء المغيرين فهزمهم

المماليك فى عين جالوت بالشام ، فى ١٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

وكانت من قبل ذلك موجات أخرى قد وفدت من الغرب وعرفت باسم الحروب الصليبية ، ظلت تتدافع على الأراضى الاسلامية مدة قرنين من الزمان (١٠٩٩ - ١٢٥٤ م) . وكان من أبرز الأسماء التى كتبت فى لوحة الشرف اسم صلاح الدين الأيوبى ، الذى هزمهم فى حطين ، وخلص بيت المقدس منهم فى ليلة الإسراء سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

وما زال الغرب يضمر الحقد للشرق والاسلام فى شخص صلاح الدين الى يومنا هذا ، ولم يقطعه قول الجنرال « اللنبى » البريطانى عندما دخل بيت المقدس بعد الحرب العالمية الأولى : الآن قد انتهت الحروب الصليبية . ولا قول « جورو » الفرنسى : هاقد عدنا يا صلاح الدين .

وما كانت الحروب الصليبية أبدا ، كما قال البابا « أربانوس » الثانى سنة ١٠٩٥ م ، لتخليص المسيحيين من الأذى الذى ألحقه بهم المسلمون ، فالاسلام معروف بسماحته التى لا يبارى فيها ، ولقد تحدث « هندريك فان لون » فى كتابه « قصة الجنس البشرى » [١] عن

---

(١) ج ٢ ص ٧٩ طبعة الشعب .

سبب قيام الحروب الصليبية ، بعد بيان احترام المسلمين لعيسى وسماحتهم مع الأديان الأخرى ، وظهور الأتراك السلاجقة الذين حموا البلاد الاسلامية من غارات الدولة البيزنطية واستولوا على آسيا الصغرى ، فقال :

إن الامبراطور «الكسيس» استنجد بالصليبيين لحماية القسطنطينية من خطر المسلمين ، وبدأ الصليبيون قتالهم وهم يضمرون أشد البغض للمسلمين ثم تغيرت قلوبهم تغيرا تاما بعد ذلك واحتقروا الروم فى الدولة البيزنطية الذين كانوا يخدعونهم ويخونون دعوة الصليب فى كثير من الأحيان ، وبدءوا يقدرون خصال أعدائهم المسلمين ، الذين أثبتوا أنهم ذوو مروءة وخصوم أشراف ، والحق أن الحروب الصليبية التى بدأت فى صورة حملة لتأديب الأتراك السلاجقة أصبحت منهجا ثقافيا عاما يعلم الملايين من شباب أوروبا معنى الحضارة .

وقد تعرض الاسلام لمحنة أخرى فى الأندلس ، ذلك المعقل الذى ظل يؤدى رسالته نحو ثمانية قرون ، فقد أمر الكاردينال « اكسيمنس » أعدى أعداء العرب والاسلام ، سنة ١٥١١ م بإحراق كتب العربية ، والمصاحف المحفوظة فى ميادين غرناطة ، ثم تولى ديوان التحقيق الدينى إبادة كل أثر للمسلمين ، إذ

لولا ذلك لزحف الاسلام على أوربا ، وسادت اللغة العربية فيها ، وكان الحكم للمسلمين عليها .

وعندما ظهرت قوة الاسلام مرة أخرى ، بعد طعنات التتار والصليبيين والأسبان ، بقيام الـدولة العثمانية التى تقدمت بفتوحها حتى أسوار فيينا ، تحـركت العداوة مرة ثانية فى قلوب الأعداء ، وحيكت المؤمرات للقضاء عليها .

ومن أهم هذه المؤامرات مؤامرة « طرابزون » التى أحبط كل مخططاتها « محمد الفاتح » . ولما رأى البابا أن حيله لم تفلح فى قتال الأتراك أراد أن يدخل محمدا الفاتح فى النصرانية ، فكتب له بذلك سنة ١٤٦٣ م ، ولما لم يفلح استعان بجمهورية البندقية على قتـال الأتراك ، وأذاع نداء الى الحرب المقدسة فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٤٦٣ م وباع فى سبيل ذلك صكوك الغفران لإغراء المسيحيين على الحرب ، غير أنه توفى قبل أن ينفذ خطته ، وذهبت جهوده أدراج الرياح .

وظلت الضغينة مالئة قلوب الغرب المسيحى على هذه الدولة محاولين بكل وسيلة القضاء عليها ، وكان من مظاهر ذلك « المسألة الشرقية » التى تستهدف محوها وتوزيع ممتلكاتها .

وقد تحالفت على الضعف والخلل على الدولة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فانهزمت جيوشها فى ميادين عدة وكثرت ديونها حتى أعلنت إفلاسها سنة ١٨٧٤ م ، وكانت الامتيازات ، وتدخل الدول ثم تقسيم أملاكها بين المستعمرين .

كان لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م أثره السيىء فى اقتصاديات البلاد العربية والاسلامية، وكانت الكشوف الجغرافية ممهدة للاستعمار والاستغلال ، كما كانت ممهدة للتبشير بالمسيحية ولتكوين الشركات الاستغلالية التى جاء على أثرها الاستعمار .

وقد انتابت أوروبا فى القرن التاسع عشر حمى الاستعمار ، ونكب العالم الاسلامى به ، وتوزع بين أعدائه الذين أجمعوا على إضعاف الدين واستغلاله لمصالحهم .

استولى الروس على بلاد التركستان ذات الشهرة الاسلامية العظيمة ، وعلى القوقاز وشمالى إيران ، وتنازلت لهم إيران عن جورجيا وأرمينيا سنة ١٨٢٨م. واستعمرت انجلترا الهند سياسيا عندما ألغت امتياز شركة الهند الانجليزية سنة ١٨٥٨م .

ودخلت أصابع الاستعمار العالم العربى ، فكان من أول التدخل حملة فرنسا على مصر سنة ١٧٩٨ م . وكان التدخل بالديون التى فتح بابها محمد سـعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣ م) وبامتياز قناة السويس ، ثـم بالاحتلال سنة ١٨٨٢م . وكانت الدولة العثمانيـة فى ضعف دعا الى قيام حركات انفصالية فى مصر وسوريا وغـيرهما .

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م ، وتونس سنة ١٨٨٢م ، وأطلقت يدها فى مراكش بمقتضى معاهـدة بينها وبين الانجليز سنة ١٩٠٤م ، وأعلنت حمايتهـا عليها سنة ١٩١٢ م .

وكان نفوذ الانجلـيز فى السودان الـذى أخـلاه المصريون (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م) وبعد انتهاء أزمـــة فاشودة سنة ١٨٩٩م ، واحتلت عدن وما جاورها سنة ١٨٣٩م ، وكذلك احتلت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١م، وتخلت عنها تركيا سنة ١٩١٢م .

وبعد الحرب العالمية الأولى تقـرر ، فى مؤتمـر (سان ريمو) فى مايو سـنة ١٩٢٠م ، الانتـــداب البريطانى على العراق وفلسطين ، والفرنسى عـلـى سوريا ، التى انقسمت الى سوريا ولبنان ، وتقـرر إقامة إمارة عربيـة فى شرقى الأردن خاضعة للانتداب البريطانى .

كان من أسوأ آثار الاستعمار إضعاف شوكة الاسلام وإبعاده عن مجال الحياة السياسية ، وحصره فى دائرة ضيقة ، بعيدا عن المجتمع ، تطبيقا لمبدأ « فصل الدين عن الدولة » ، ولقد كانت شروط الصلح مع تركيا فى مؤتمر « لوران » سنة ١٩٢٣م المعروفة بشروط « كيرزون » الأربعة دليلا على نوايا الاستعمار السيئة ضد الاسلام وهى :

١ ـ قطع كل صلة بالاسلام .

٢ ـ إلغاء الخلافة الاسلامية .

٣ ـ إخراج أنصار الخلافة والفكرة الاسلامية من البلاد .

٤ ـ اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الاسلام .

كما كان من آثار الاستعمار الوقوف أمام كل حركة إصلاحية على أساس الدين ، ومن ذلك مقاومتهم لحركة « تيبوتيب » فى الكونغو ، وحركة « رابح ابن الزبير » فى السودان ، وكذلك حركة « عمر تال »، « أحمد ساموری » ، « عثمان دنفديو » وغيرهم .

وكان من أثر الاستعمار أيضا تفتيت الوحدة الاسلامية بخلق الفتن والمشاكل وقيام الأحزاب وإحياء

القوميات المحلية للحيلولة بها دون قيام جامعة إسلامية عامة ، وليشغل المسلمون بعضهم ببعض .

يقول « لورانس براون » : الخطر الحقيقى كامن فى نظام الاسلام ، وفى قوته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى .

واذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ، أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير . (١)

وكان من عوامل تفتيت وحدة المسلمين دعوتهم الى التمكين للجهات المحلية كمظهر من مظاهر الاعتزاز بالقومية ، وعدم الالتزام بالعربية وقواعدها ، وقد عقد فى دمشق سنة ١٩٥٦م المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية تحت إشراف اليونسكو ، ألقيت فيه محاضرات كثيرة تمجد العامية ، وتدعو الى تبديل الخط العربى وقواعد النحو والصرف والبلاغة وهذه الدعوات الهدامة وأمثالها تقوم باسم التجديد والتطوير وهى دسيسة للعالم الاسلامى ، وتفكيك لأوصاله .

---

(١) مجلة الازهر مجلد ٣١ ص ٣٩٨ ، ٣٩٩

يقول « أمرى ريفر » فى كتابه « قصة الاسلام » :
فالوحدة التى احتفظ بها القرآن قرونا بين الشعوب الاسلامية المختلفة الأصول قد ذهبت وصار الشعب الاسلامى قوميات شتى ، فدعاة الجامعة التركية يرمون الى توحيد فروع معينة من الجنس التركى ودعاة الجامعة العربية يشيرون باتحاد الشعوب العربية ، ويقول المسلمون فى الهند : إننا هنود أولا ومسلمون بعد ذلك ، وقد نسى الجميع الصبغة العالمية التى كانت أساس الدين الاسلامى العظيم .

جاء مع الاستعمار اطلاق يد التبشير فى البلاد الاسلامية بوسائله المتعددة ، من مدارس ومعاهد وجامعات وملاجىء ومستشفيات ، وأفلام وصحافة وإذاعة ودور نشر وندوات ومؤتمرات وما شابه ذلك.

ومما يدل على خطر هذه المدارس على استقلال الشعوب ما قررته اللجنة التى ألفها مؤتمر «ونبرج» التبشيرى ، فقد جاء فى القرار ما يلى : اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة تركيا على أن معاهد التعليم الثانوى التى أسسها الأوروبيون فى البلاد الاسلامية كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ، يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول

أوروبا كلها كما نقله مسيو « لوشاتلييه » فى كـتابه « الغارة على العالم الاسلامى » ص ٧٢ [١] .

كما يدل على خطر التبشير أيضا عـلى اسـتقلال الشعوب قول بلفور صاحب الوعد المشئوم لليهود ضد العرب : إن المبشرين هم ساعد جميـع الحكومات المستعمرة وعضدها فى كثير من الأمور الهامة ، وكان بلفور نفسه رئيس شرف للجنة تبشيرية .

يقول « كالهون سيمون » القس ، مفصحا عن رغبة التبشير القوية فى تفريق المسلمين ، التى عبر عنهـا « لورانس براون » فيما تقدم : إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود ، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عامـلا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين فى نور جديد جـذاب ، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها « كتاب التبشير والاستعمار » .

إن المبشرين ينفسون عن الهزائم الصليبية التى منيت بها المسيحية كما يقول اليسوعيون : ألم نكن نحن ورثة الصليبيين ، أو لم نرجع تحت راية الصليب

---

(١) مجلة الأزهر مجلد ٢٤ ص ٩٧٦

لنستأنف التسرب التبشيرى والتمدن المسيحى ولنعيد فى ظل العلم الفرنسى وباسم الكنيسة مملكة المسيح ؟ (١)

ومن أخطر المبشرين فى القـــرن العشرين دكتــور « صمويل زويمر » الذى توفى سنة ١٩٥٢ • وكان لا يجادل المسلمين بالبرهان ، بل يجىء لهم من الناحية العاطفية ، كبيان أن تأخرهم أساسه الاسلام ، وقد عقد مؤتمرا فى القاهرة سنة ١٩٠٦ م لتنسيق جهود المبشرين على اختلاف طوائفهم ، مع أنه بروستــانتى ، لــكنه يحاول توحيد كل جهود المسيحية للغارة على الاسلام •

كما لجأ الاستعمار الى حيلة أخرى بجانب التبشير ، وهى العمل على إضعاف الشخصية الاسلامية أو القضاء عليها وإذابتها فى شخصيات أخرى ، والحد من التعصب لها ، ومن الحفاظ على مقدساتها ، وفسح المجــال للأديان الأخرى أن تشق طريقها الى أذهان المسلمين وتتكيف بها أعصابهم وأحاسيسهم ، وذلك عن طريق المؤتمرات والندوات واللجان والجمعيات والمراكــز والمؤسسات التى ينشئونها بعناوين خداعة •

وقد كثرت فى المجتمع الاسلامى الكتب المترجمة عن الفكر الأوربى والأدب الأمريكى ، وفيها أمور فى غاية

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١١٧

الخطورة على العقيدة والسلوك ، تعرض بوسائل مغرية جذابة ، وسيجىء له نموذج بعد ، وغزت الأفلام الأجنبية حقل السينما العربية والاسلامية وفيها سموم كثيرة ٠

والمجتمع الاسلامى ، وإن كان فى حاجة الى خبرة الغرب ، إلا أنه ليس فى حاجة الى استيراد عقيدته وقواعد سلوكه وأخلاقه ، التى تدل الأمارات على أنها ستؤدى الى تدمير حضارته فى وقت قريب ، إننا فى حاجة الى مواد بناءة لا هدامة ، والاختيار يحتاج الى عقل واع وخبرة واسعة ونظرة بعيدة ٠

إن جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية التى يعمل « هو بكنز » نائبا لرئيسها ، عقدت مؤتمرات فى « بحمدون » بلبنان سنة ١٩٥٤م ، قاطعته شخصيات كثيرة من المسلمين وغيرهم معلنة بها ليست فى حاجة اليه ، ففى الاسلام مثل عليا لا يدانيها ما يقرره المشرفون على المؤتمرات من المبشرين و « هو بكنز » هذا كان قسيسا ومنتسبا لطائفة « المتيودليت » وله نشاط سياسى لصالح أمريكا وبريطانيا ٠

إن عناوين هذه المؤسسات وهذه المؤتمرات عناوين براقة خلابة وهى تعطى الفكرة السامة فى قالب حلو

سائغ ، أو بين مذوقات شهية والناقد البصير يرى هدما للعقائد والأخلاق .

والصهيونية العالمية هى التى تديرها وتقف من ورائها ، ولها أصابعها وعيونها فى كل دولة وفى كل وسط ، ويستطيع رجالها ، بمالهم من خبرة وما مرنوا عليه من أساليب ، أن يشكلوا أفكار الناس وأخلاقهم كما يريدون ، والمجتمع الاسلامى لا بد أن يتنبه الى هذه المخططات ويعد لها العدة حتى لا يفاجأ بها فينهار وتنهار معه القيم الاسلامية .

المقاومة الفكرية والخلقية :

ذكرنا فيما تقدم بعض مظاهر الحرب السياسية وتوابعها ضد الاسلام فى أصله وفى عالميته ، وهى حرب عريقة فى القدم اتخذت أشكالا شتى ، وفيما يلى بعض مظاهر لحرب أخرى اتخذت طابعا علميا خلقيا ، وإن يخدم الحرب السياسية ويساعد على الاستعمار .

إن حرب العقيدة والأخلاق قديمة أيضا ، بل هى أقدم من الحرب السياسية المسلحة ، وقد تولى كبرها المسيحية واليهودية اللتان رأتا فى الدين الجديد قوة منافسة تزحمهما فى ميدان النفوذ .

كانت أساليب الأعداء فى هذه الحرب قيادة حملة افتراء وتكذيب لدعوة الاسلام ولشخص الرسول وأصحابه ، واشتدت وطأة هذه الحرب عندما ضاع سلطان الأديان من هذه البقعة الواسعة التى كان يسيطر عليها الاسلام ، وبلغت أشدها بعد الحروب الصليبية وبعد طرد المسلمين من أسبانيا ، فقد تبين تماما للمنهزمين فى هذه الحروب أن سبب غلبة المسلمين عليهم هو إيمانهم وأخلاقهم التى تعلموها من كتاب الاسلام ، وحرصوا على التمسك بها والتضحية من أجل الدفاع عنها .

لهذا عمد الأعداء الى كسر هذه الأسلحة المعنوية التى قاتل المسلمون بها أعداءهم وانتصروا عليهم ، يقول : « أتين ذينيه » فى كتابه عن السيرة النبوية : ليت شعرى ما عسى أن يكون منشأ البغض الذى يضمره المسيحيون للاسلام ، وهو مع عدم قابليته للتغيير ، يقدم لهم كثيرا من الأدلة على احترامه لعيسى ، هذا . البغض استمر فى عصرنا هذا عصر التسامح الدينى ، إن لم نقل عصر عدم المبالاة بالدين ، ألكون نشأته آسيوية ؟ ولكن ، ألم تكن المسيحية آسيوية فى جوهرها قبل تخليصها من اليهودية بوساطة بولس الرسول ؟ فقد قال عيسى نفسه . إنى لم أرسل إلا لنعاج بنى

إسرائيل الضالة « إنجيل متى ١٥ » • أم من شريعته ؟ ولكن شريعة الاسلام تكاد تكون مطابقة لمذهب بعض أشياع المذهب البروتستانتى (هـذا الاطـلاق غـير صحيح) أم من ذكرى الحروب الصليبية ؟ نعم إن هذه الذكـرى رغما من تقادم الزمن لا تزال تفعل فعلها المشئوم فى نفوس كثير من الجهلاء ، ولكنها لا تكفى وحدها فى تعليل حكم الاعـدام الذى قضى به عـلى الاسلام فى أوروبا ، فلابد اذا من تلمس سبب آخـر• انتهى كلامه •

يقول « دير منجم » فى كتابه « حياة محمد » (١) : حينما اشتعلت الحرب بين الاسـلام والمسيحية ودامت عدة قرون ، اشتد النفور بين الفريقين ، وأسـاء كل منهما فهم الآخر ، ولكن يجب الاعتراف بأن إسـاءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكبر ممـا كانت من جانب الشرقيين • وفى الواقع أنه على أثر تلك المعارك العنيفة التى أرهق بها الجدليون البيزنطيون الاسلام بمساوىء احتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراسته، هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخـذوا يهاجمون العرب ، فلم تكن مهاجمتهم إياهم إلا تهما باطلة ، بل متناقضة •

---

(١) ص ١٣٥ من الطبعة الفرنسية .

لقد كان من مفترياتهم ما جاء فى قصيدة « رولان » وهى أهم منتجات العصور الوسطى الغربية على الإطلاق ، إن فرسان « شارلمان » قد أسقطوا الأصنام الاسلامية ، وأن العرب يعبدون ثالوثا مؤلفا من : محمد ، وأبولون ، وتيرفاجان .

كما جاء فى رواية ألفت بعد انتهاء الحروب الصليبية : أن الاسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معا .

وهذه المفتريات لم تروج فى العصور الوسطى فقط ، بل فى عصر النهضة كذلك ، بل التاث بها باسكال ومالبرانش فى القرن السابع عشر ، ورينان فى القرن التاسع عشر ، وكازانوفا ودير منجم فى القرن العشرين ، لقد اتهم رينان فى كتابه « الاسلام والعلم » الاسلام بتهم باطلة ردها عليه جمال الدين الأفغانى .

وكما رأيت دور المبشرين فى حرب الاسلام نريك أن المستشرقين الذين عنوا بالدراسات الشرقية ، وبالأخص منها الاسلامية والعربية حملوا سلاح الكذب والبهتان والتضليل والتشويه لمبادىء الاسلام وحقائقه ، وعلى التاريخ الاسلامى أيضا .

وكان أشد هؤلاء حربا للإسلام هم اليــهود ، الذين وجدناهم وراء كل حرب ضــد الاســلام تقريبا ، وقد تقدم لك ما كتبه « ساوندرز » فى مجلة التاريخ المعاصر عن دخول الاسلام فى فلسطين وأنه كان مصادفة ، ولم يفكر نبى الاسلام فى الدعوة الى دينه خارج الجزيرة العربية .

لقد قام الاستشراق أولا لغرض دينى ، إذ حركت الحروب الصليبية فى نفوس الأوروبيين الرغبة فى إعادة النظر فى شرح كتبهم الدينية وفهمها على أساس التطور الحديث ، الذى تمخضت عنه حركة الإصلاح ، فاتجهوا الى الدراسات العبرانية ثم العربية ثم الاســـــلام ، وبمرور الزمن اتسع نطــاق البحث فشمـــــل الأديان واللغات والثقافات غير الاسلامية والعربية .

كما أن المسيحيين رغبوا فى التبشــــير بدينهم بين المسلمين ، فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وارسالهم الى العالم الاسلامى ، والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم واعتمد عليهم فى بسط نفوذه فى الشرق .

كما كان للاستشراق أســـباب أخرى تجـــارية أو دبلوماسية سياسية ، ولكن يلاحظ أن اليهــود قاموا

بالاستشراق لغرض كان دينيا أكثر منه شيئا آخر ، وهذا الغرض هو إضعاف الاسلام والتشكيك فيه بكل وسيلة ممكنة ٠

وتركزت أهداف الاستشراق ، مع تنوعها ، أخيرا على خلق التخاذل الروحى ، وإيجاد الشعور بالنقص فى نفوس المسلمين ، وحملهم من هذا الطريق على الخضوع للتوجيهات الغربية ، ويحاول المستغلون منهم بالآداب أن يفضلوا أدب الغرب على آداب العرب والاسلام ٠

ومن أخطر المجلات التى ينشر فيها المستشرقون أبحاثهم مجلة « العالم الاسلامى » التى أنشأها القس « صمويل زويمر » سنة ١٩١١ م وكانت تصدر من « هارتفورد » بأمريكا ، وطابعها تبشيرى سافر ، وللمستشرقين الفرنسيين مجلة بهذا الاسم أيضا ، وبهذا الروح وهذا الاتجاه ٠

وأخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار دائرة المعارف الاسلامية بعدة لغات ، وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراساتهم ، على ما فيها من خلط وزيف وتعصب سافر ضد الاسلام والمسلمين ، والهيئات السياسية والدينية والاقتصادية تغدق على المستشرقين

الأموال الطائلة ، وتحبس عليهم العطايا لتساعدهم على متابعة نشاطهم ، التى يفيدون منها فى مجـــال عملهم .

ومن أخطر هؤلاء المستشرقين على الاســـلام الأب « لامانس » الذى ألف كتابا عن الاسلام ، فيه أكاذيب ومفتريات كثيرة ، وهو يعد عند المستشرقين حجة فيما يكتب عن الاسلام ، ودوره فى هذه الحرب السلمية كدور « بطرس الناسك » فى الحروب الصليبية . يقول هذا الرجل مشككا فى شجاعة النبى وشجاعة العرب : زعموا أن العربى متسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح فى الفتوح الاسلامية الأولى بما امتاز به العربى من صفات ومزايا ، ولكنى أتردد فى قبول هذا الرأى المبالغ فيه الى حد كبير ، إن شجاعة العرب إنما هى من نوع غير سام .. ولقد قال عنه « الفونس ايتين دينيه » الذى أسلم وسمى ناصر الدين . فلا مانس جرىء جرأة نادرة ، وتتمثل هذه الجرأة فى أنه اذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة على خبر واحد يؤكد به زعمه وهواه استغنى عن الخبر وثبت على مزاعمـه الباطلة ، التى يسوقها الى القراء فى رشاقة بالغة ، وأحيانا يقول : هذا أمر عنى رجال الحـديث والخبر بكتمانه .

ومن وسائل العدو فى الحرب الدينية ضد الاسلام إيفاد الأساتذة للتدريس فى معاهد البلاد الاسلامية، وتيسير طلب العلم فى بلادهم للمسلمين وتخصيص منح سخية لذلك ، والعمل على نشر الكتب والصحف والأفلام والروايات وكل أنواع الثقافة .

وهذه الثقافة التى تحملها هذه الوسائل فى خلالها سموم ضد الأفكار وضد العقائد والأخلاق ، وجدنا أثرها فى الناشئة من أبناء المسلمين وأساتذتهم الذين تربوا على هذه الموائد ، ووجدنا حرية الفكر والبحث، والطعن والنقد ، تنشر ويتسع مداها ، دون أن نجد لها حاجزا يصدها ، أو مصباحا قويا يكشف ضلالها ، من ثقافة دينية أصيلة واعية ، ومعارف اسلامية واضحة ، اللهم إلا شيئا قليلا لا يغنى فى هذه الحرب الطاحنة التى يجب أن تحشد لها كل الأسلحة وأحدثها وأقواها .

وكان لهذه الثقافات أثرها فى التحرر من القيود والخروج على التقاليد ، وإهدار القيم والانحراف الى المذاهب الهدامة والتشيع للآراء الضالة يقول « أمرسون » فى كتابه الذى ترجم أخيرا بمشورة السفارة الأمريكية : من أراد أن يكون رجلا ينبغى أن ينشق

على السائد المألوف ، ومن أراد أن يجمع ثمر النخيل الخالد ينبغى ألا يعوقه ما يسميه الناس خيرا ، بل يجب عليه أن يكتشف إن كان ذلك خيرا حقا ٠ لا شىء فى النهاية مقدس سوى نزاهة عقلك ٠ حرر نفسك لنفسك يؤيدك العالم ، الخير والشر اسمان يمكن فى سهولة شديدة أن ينتقلا الى هذا أو ذاك ، والشىء الوحيد الصحيح هو ما يتبع تكوينى ، والشىء الوحيد الخطأ هو ما يقاومه ٠ « ص ١٣٢ » ٠ ويقول فى ص ١٥٤ ٠ إن من ينبذ الدوافع العامة الانسانية ، ويجرؤ على الثقة العامة فيما تمليه عليه نفسه لابد أن يتميز ببعض صفات الآلهة ٠

وفى هذا الكلام الأمريكى دعوة الى التحرر الفكرى المطلق وإيمان كل إنسان بما يمليه عليه عقله، فالحقيقة هى ما يراها هو لا ما يراها غيره ، فذلك خطأ ٠ وهذا مبدأ كان أحد مبادىء السوفسطائية القدامى المسمين « عندية » ، لا تستقر به حقيقة عامة أبدا ، وهو أصل الفوضى فى الفكر والسلوك ، وهل من مصلحة المسلمين أن يطلعوا على هذه الثقافة ليتخذوها هاديا لهم فى حياتهم ؟ ٠

يقول الأستاذ محمد محمد حسين معقبا على هذا : هذا الكاتب وأمثاله يعتمدون على أن الأذكياء سوف يجدون فى كلامهم ما يرضى غرورهم ، أما الأغنياء فسوف يقفون أمامه مشدوهين كأنهم أمام معجزة ، وأما الشباب فسوف يجدون فيما يتضمنه من الثورة التى تحطم ولا تبقى ولا تذر ، مجالا للتنفيس عن نشاطهم ونزوعهم الى إثبات وجودهم من كل وجه ، وهذا الكاتب الصهيونى يتعقب شعائر الدين كلها بالتسفيه والسخرية اللاذعة فالتوبة والندم عنده شىء آخر ، هو نوع من الصلاة الزائفة ، ونقص فى الاعتماد على النفس وعجز فى الإرادة ، والرحمة والعطف لا تقل عن الندم وضاعة « ص ١٥٧ » .

كان أمثال هذه الثقافات من العوامل التى دفعت الى الشك فى الأديان ، فألحد الكثيرون ، ودفعت أيضا الى الطعن فى الاسلام من طرق شتى ، فمرة . بأن القرآن من صنع محمد لم يوح به اليه ، أو أنه أوحى بمعناه دون لفظه ، ومرة بأنه لم يجمع كله بل ضاع بعضه ، وبأنه محرف ، لأن فيه مصاحف يوجد فيها ما لا يوجد فى الأخرى ومرة يقولون : إن السنة التى نسبت الى النبى لا يصح الاعتماد عليها لعدم الثقة بطريقها ، ويجرحون كثيرا من الرواة ليصلوا بذلك الى هدم الأساس الذى كان منه التشريع ، واذا انعدمت

الثقة فى الحديث الذى يوجهون اليه طعونهم ، سقط حصن منيع من حصون الشريعة فيتجهون الى الحصن الآخر وهو القرآن ليزعزعوا عقيدة المسلمين فيه فإذا خرجوا منه ، وهو معتصمهم ، كانوا كالغنم المحصنة فى حظيرتها ثم انطلقت فانتهشتها الذئاب لقمة سائغة .

وكذلك يوجهون الطعون الى الاسلام كنظام اجتماعى أو سياسى لا يصلح للتطبيق فى عصور المدنية والحضارة ويزعمون أنه هو سبب ضعف المسلمين وتأخرهم ، محاولين إثبات ما يفترونه مع واقع المسلمين لا من نصوص الدين ، ويحاولون أن يلصقوا بالاسلام ما يشوه جماله ويشوب صفاءه ونقاءه ، حتى يبدو للناس مسخا لا يصلح للبقاء فى عصر العلم والتجربة .

لقد نشرت صحيفة التايمس أخيرا مقالا تحت عنوان « الاستعمار والاسلام » ذكرت فيه تقدم الاسلام بسرعة فى أفريقيا ، وأنه يثير القلق عند الأوربيين ، ويخشون أن يخترق المناطق الاستوائية الى الجنوب .

كما ذكرت أن المفكرين الغربيين اختلفوا فى اتجاههم الفكرى نحو مستقبل الاسلام فى أفريقيا ، فرأى بعضهم ضرورة الحد من تقدمه عن طريق نشر البدع والخرافات فيه ، حتى يكون هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغط الاسلام المتزايد .

ولعل هذا هو السر فى أن الاستعمار يحتضن رجال الطرق الصوفية فى أفريقيا ، وكثير منهم لا يحسن فهم الاسلام ولا عرضه على الناس ، ويساعدهم على نشر الأباطيل التى تعرض للناس على أنها هى الاسلام ، فيأخذون صورة مشوهة عنه تنفرهم منه فيتملصون أو لا يدخلون فيه ٠

وبعد فإن حملات التبشير وتضليل المشتشرقين ، والغزو الثقافى والخلقى ومؤتمرات الاستعمار ، تهدف كلها الى إضعاف شوكة المسلمين وتعمل جميعها فى إطار واحد هو محو الشخصية الاسلامية أو إضعاف أثرها ، والحط من قيمة الاسلام والمسلمين فى المحيط العالمى ٠ وهذه كلها تحد من التوسع الاسلامى الى حد ما ، ذلك التوسع العالمى الذى يهدد الاستعمار فى أفريقيا وآسيا ٠

وقد أحكم الأعداء هذه المحاولات وسددوا بدقة تلك الضربات خصوصا فى القرون الأخيرة ، وركزوا اهتمامهم على العرب فى وطنهم الواسع ، وأقاموا حوله حصارا سياسيا واقتصاديا ، موجهين اليه كل أسلحتهم ، لعلمهم أن الاسلام ، وهو دين أغلبيتهم، يقوى بالعرب أكثر مما يقوى بغيرهم ، وأن اعتزاز العرب بعروبتهم واسلامهم عميق جدا ، وبأن لغتهم هى الرابطة التى جمعت أكثر المسلمين حولهم ٠

وكانت الهجمات التى وجهت الى مصر موجهة فى الحقيقة الى الاسلام والعروبة ، لأنهم يعتبرونها رأس المقاومة ، والجزء العصبى من جسم الأمة الاسلامية ، وقد بدأت الهجمات عليها بالاحتلال الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم بالضغط على مصر لتكون فى جانب الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، وأخيرا وضع الاستعمار شوكة فى قلب الوطن العربى هى «إسرائيل» لتظل عامل فتنة ومثار قلق وجسرا يعبر عليه المستعمرون الى أية بقعة فى الوطن العربى .

ثم ظهر الحقد الكامن عندما قطعت مصر على الاستعمار طريقه الذى ظل يتحكم فى مصاير العرب قرابة مائة سنة ، وهو قناة السويس فكانت حملة سنة ١٩٦ على بورسعيد ، وما زال الحقد يأكل قلوبهم الى الآن ، وقد تنفس عن هجوم اسرائيل على الوطن العربى بمساعدة الاستعمار ، وعرقلة كل الجهود لإحقاق حق العرب والتمكين للسلام فى العالم العربى، ولن يزول حقد الغرب علينا ما دامت فينا يقظة وقوة وفداء وتضحية وإيمان بالله عميق ، والله يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

يقول « ولفرد كانتويل سميث » فى كتابه « الاسلام فى التاريخ الحديث » ص ١٠٣ :

فالغربيــون الــداعون للدنيويــة يودون أن يروا المسلمين مرتدين عن دينهم ، وإن لم يمكن ذلك فهم يودون أن يروهم بعيدين عنه طارحين له فى زاوية من حياتهم لا يقربونها ، وأن يبنوا مجتمعاتهم كما يبنيها المتحررون ، ولكن ليس ثمة احتمال لأن يتنازل العالم الاسلامى عن صفته الأساسية ، وإلا كان ذلك كارثة له وللدنيا بأسرها .

وصدق الله إذ يقول : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١) . ولم هذا العداء والتربص ونحن ندين بالاسلام والسلام ونحترم جميع الأنبياء ؟ « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » (٢) .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٩

(٢) سورة المائدة : ٥٩

جبهـات الدفاع عن عالميـة الاسـلام

لقد وجد فى العالم الاسلامى على مر التاريخ رجال تنبهوا الى مؤامرات العـدو فى الحقول السياسـية والثقافية والاجتماعية والخلقية وقد تولت الحكومات الاسلامية أمر الصراع فى الميدان السياسى وكان على الشعب أكبر الأعباء فى الدفاع عن الدين فى الميادين الأخرى الى جانب دفاعهم السياسى بالجهاد ٠

ألفت الكتب فى الرد على الشبهات فى العقائـد ، وتخليصها من أوشاب الفلسفة والخرافات الطارئة على الثقافة الاسلامية ، وفى تخليص العبادات وأحكام الدين مما دخل عليها من بدع ومنكرات ٠

وعقدت المناظرات ، وأرسلت الكتب الى الخصوم ، وكانت حركة علمية قوية برز فيها الغزالى فى الـرد على ما دخل فى العقائد من فلسفة ، وفى الدعوة الى تنقية الدين من الأفكار الخاطئة ، وتقويم السلوك على أساس الشريعة الاسلامية ، وكان كتابه « إحياء علوم الدين » صاحب دور كبير فى هذا المجال ٠

وكتب ابن تيمية وابن القيم فى الرد على شبهات أهل الكتاب وفى توضيح مبادىء الدين على أساس

معقول ، ونعيا على ما ألصق بالـدين فى عقائـده وعباداته من بـدع وخرافات ، ورأيـا أن المسلمـين بعيدون عن الدين الحقيقى الذى لو عرفوه حقا ، ونفذوه صدقا لما كانوا فى وضعهم المؤلم الذى جعل الأجانب يغيرون عليهم من الشرق والغرب ويتحكمون فى مصير الخلافة .

وجاء محمد بن عبد الوهاب فكانت دعوته امتدادا لدعوتهما ، وكانت من أقوى الحركات التى عـرفت فى القرون الأخيرة ، وأبقاها أثرا فى الميدان السياسى والفكرى . كما ظهر فى الهند « شاه ولى الله » الذى عاصر انحلال (امبراطورية المغول) ودعا الى تطهير الصوفية مما شابها ، وقد أصر على أن المسلم الحق يجب عليه ألا يقبل الانحطاط الذى كان سائدا فى عصره وكان يطمع فى إنشاء دولة اسلاميـة فى الهند عـلى شاكلة دولة المغول ليستعيد المجتمع الاسلامى قوته .

وقد ظهر فى القرن التاسع عشر اتجاهان للاصلاح ، أحدهما للاصلاح الداخلى والآخر للاصلاح الخارجى ولمع فى سماء الاصلاح أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى ومحمد إقبال وأحمد خان .

وكان جمال الدين (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) يمثل المسلم العصرى فى إلمامه بحقائق الدين وبالآراء الحديثـة

وربطه بينهما ، وكان نشاطه يتجه الاتجاهين معـا ، وآزر الحركات السياسية فى مصر وإيران وغيرهما ، وكان يرى أن الغرب خطير على الاسلام والمسلمين ، ولكن لا يفوته الإعجاب بتقدمهم العلمى الذى يجب أن يحتذى ، وكان يذكـر المسلمين بأنهـم وحدهـم المسئولون عن مستقبل الاسلام ، فكان يخلق فيهـم الشعور بالمسئولية ، ويحملهم على العمل المتواصل ، وبين فى كتابه « الرد على الدهريين » الأمور التى تتم بها سعادة الأمم وهى صفاء العقول من الخرافات ، ثم الطموح وعلو الهمة وتعشق الحرية والعزة والكرامة ثم بناء العقيدة على الأدلة الصحيحـة والبراهـين القوية .

وكان هو الداعية القوى للجامعة الاسلامية للوقوف أمام الغرب المستعمر ، وقـد لخص « ستودارد » فى كتابه « حاضر العالـم الاسلامى » تعاليمه بالنسبة للسياسة الخارجية فيما يلى :

١ ـ الدول النصرانية على اختلافها تكيد للاسلام .

٢ ـ الروح الصليبية كامنة فى نفوسهم ضد الاسلام، فهم لا يعاملونهم أمام القانون معاملتهم لأنفسهم .

٣ - يتذرع الغربيون لاحتلال الشرق بأنهم همج لا يستطيعون إصلاح أنفسهم ٠

٤ - كل هذا يدعو الى اتحاد كلمة المسلمين لرفع نير الذل وتفهم أسباب رقى الغرب ٠

ومحمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ تتلمذ على أفكار جمال الدين ، وأيقن أنه لا أمل فى إصلاح المسلمين وتقوية شوكتهم بالوسائل السياسية وذلك لفساد الجو السياسى من حوله فآمن برسالة العلم الدينى ، وصرف همه لتحرير الفكر ، وتفسير مسائل الدين تفسيرا يطابق العلم الحديث ٠

وتعاون هو وجمال الدين على رد الشبهات ضد الدين ، وعنى هو وزميله « ميرزا محمد باقر » بالتبشير الاسلامى ، وكان له حوار مع القس «تيلر»

وكذلك كان الكواكبى ينعى على الاستبداد ويدعو الى الحرية وتغيير الأوضاع الفاسدة بكل الوسائل المشروعة ٠

أمثال هؤلاء الدعاة والمصلحين كان لهم أثر فى إيقاظ الشعور بالواجب نحو الوطن الاسلامى الذى اختل توازنه الاجتماعى وتحللت عراه الخلقية وضاع كيانه السياسى ، ولهذا ألفت جمعيات كثيرة للاصلاح ، منها

ما هو سياسى تمثل فى الأحزاب ، ومنها ما هو دينى وكان الذين تجمعهم فكرة سياسية لا يهتمون بالدين كمبدأ يقوم عليه الاصلاح ، وهذا بالطبع أثر من آثار الاستعمار وتشبع العقول بآرائه وسمومه • ومن كانت تربطهم فكرة دينية كان بعضهم لا يعنى بغير الناحية الدينية البحت القائمة على العقيدة والعبادة ، ولا يهم من أمر المسلمين سياسيا واجتماعيا شىء ، وهى أشبه بمدارس خاصة تقوم على فكرة معينة ، وقد راقب المستعمر نشاط هذه الجمعيات وخشى منهامحاولة مزج الدين بالسياسة والخروج بالاسلام عن دائرة العبادة الى النشاط السياسى والاجتماعى كما كان شأنه فى عصوره الزاهية الأولى •

ولا يجوز أن ننسى أبدا فى مجال الاصلاح ، الجامع الأزهر الشريف ، الذى خرج القادة والأبطال ، ووجه الحركة الفكرية فى العالم الاسلامى زمنا طويلا ، واشترك رجاله عمليا فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى والنهوض بالوطن ومقاومة المستعمر والجهر برأى الشعب عند الحاكم والولاة •

يقول السيد رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى الحفل الذى أقامه الأزهر سنة ١٩٥٤ م ابتهاجا باتفاقية الجلاء وتكريما لرجال الثورة ما نصه :

« وفى هذه المناسبة العظيمة لا يسعنى إلا أن أذكر لهذا الأزهر جهاده على مر السنين ، فقد حمل الأزهر دائما الرسالة ، ولم يتخل مطلقا عن الأمانة وكافح كفاحا مريرا فى سبيل الحصول على أهداف الوطن ، وقاسى رجاله وعذبوا ، وقتلوا وشردوا ، واقتحم المحتلون الأزهر ، فلم يتوان عن المطالبة بحقوق الوطن . واستمر الأزهر يحمل الرسالة حتى سلمها للجيش والى عرابى . الذى قام متسلحا بروح الأزهر المعنوية ، الى جانب القوات المادية ، يطالب بحقوق البلاد . وعندما وطئت أقدام المستعمر أرض مصر حاول بكل قواته أن يقضى على رسالة الأزهر ، كما حاول القضاء على الجيش وقوته ورسالته ، ورغم هذا استمر الأزهر على مر السنين يكافح » .

هذا ويجب أن نلاحظ أن الأزهر الشريف كان وما يزال يمثل الجامعة الاسلامية فى معناها الحقيقى ويبرهن عمليا على أن الاسلام دين عالمى ، لأنه يضم من رواد الاصلاح وأساتذة التوجيه فى العالم الاسلامى ما يمثل أكثر من خمسين جنسية فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وهم يكونون فى ساحة الأزهر وفى معاهده وكلياته هيئة أمم إسلامية ، تدل بهذا المظهر العملى

على عالمية الدين الاسلامى الذى انضوى تحت لوائه الملايين من الأجناس المختلفة ، والـذين رأينا مـن بعضهم تحمسا وغيرة على الدين وشدة تمسك به قد تفوق غيره ممن انبعث نور الاسلام من بينهم . وصاح أول صيحة فى بيئتهم .

إن أروقة الأزهـر خلية نحل تموج بهـذه الـروح الاسلامية التى تنتج نغمة متناسقة من بين قلوب هذه الآلاف الذين تختلف ألوانهم ولغاتهم وأجناسـهم ، ولكن لا تختلف أبدا فيهم الروح الاسلامية الجامعة ، وهذا من أكبر المظاهر الدالة على عالمية الاسلام ، يصح أن يكون لوحة فنية تاريخية تعرض فى معارض القرن العشرين دليلا عمليا على هذه الحقيقة .

والى جانب هؤلاء المندوبين عن الجنسيات والبيئات والدول المختلفة الذين يعودون الى بلادهم مصابيح هداية ورسل إصلاح مثلهم فى ذلك مثل الذين يحجون الى الكعبة من أقطار العالم يتزودون عندها خير زاد ويعودون بقلوب كلها عزم على استئناف الجهاد فى الحياة على منهج سـليم ـ الى جـانب هؤلاء نرى المسلمين فى أقاصى البلاد ينظرون الى الأزهر طالبين

بإلحاح أن يمدهم بالكتب والدعاة دليلا على أنه ربط بين الخمسمائة مليون فى زوايا الأرض الاربعة برباط العلم الى جانب رباط الدين ٠

إن فترة الضعف السياسى والدينى التى مرت بالمسلمين أخيرا ومكنت للعدو منهم هى فترة مؤقتة ليست ضربة لازب ، والاسلام ما يزال عالميا فى مبادئه وأصوله ، وإن لم يصلح المسلمون فى فترة الضعف أن يكونوا عنوانا له ، ومع ذلك فإن الدول الاسلامية فى السنوات القريبة ـ وقد آلمها هذا الكبت الاستعمارى والغزو الفكرى ـ قامت بانتفاضات قوية ثائرة على الأوضاع السياسية والاجتماعية الفاسدة ، ونال أكثرها استقلالها وبدأ يخطو الخطوات الأولى فى سبيل الاصلاح ، إلا أن التيارات المتضاربة من حولها بعنف وقوة تحاول أن تؤثر على اتجاهات هذه الانتفاضات٠

غير أن النزعة الاستقلالية وجهت كثيرا من هذه الدول لتكون سياسة إصلاحها نابعة من بيئتها وواقع تاريخها ومواريثها الأصيلة ، ومن إيمانها برسالتها فى الحياة فى الوقت الذى لا تستطيع أن تعيش فيه منعزلة عن العالم الذى اتصلت أسبابه وتداخلت مصالحه ٠

ولابد من إيجاد تعاون وتفاهم بين هذه الـدول الناهضة ، لتشتد أركان نهضتها ، وتقوى على مواجهة الأحداث المفاجئة ، وقد بذلت جهود كبيرة فى سبيل ذلك تهدف جميعها الى تحسين أحوال المسلمـين فى القطاعات الخاصة والعامة ، وفى الداخل والخارج ، وهم بذلك يعطون الدليل على ما فى إسلامهم من قوة وحيوية ، ومن عزة وسيادة ، تلفت أنظار العـالم اليه ، وتغرينا بالعمل الدائب لتوصيل نوره وهدايته الى المتعطشين اليه فى جنبات الأرض .

العرب والرسالة العالمية

تبليغ الدين الاسلامى عالميا مهمة كل مسلم بصرف النظر عن جنسه ولغته وبيئته ، لأن جميع الناس الذين تشرفوا باعتناق مبادئه قد تساووا فى الحقوق والواجبات . لا فرق بين عربى ولا عجمى ، ولا بين أبيض وأسود ، وقد تكون هناك جهود فى نشر الدعوة قام بها غير العربى خلدت اسمه فى سجل العاملين المخلصين .

ولكنى وضعت هذا العنوان ، لأن شبها كثيرة وردت على عالمية الدين الاسلامى من بينها هذا السؤال .

إذا كانت دعوة الاسلام عالمية ، فلماذا جاءت فى بلاد العرب بالذات ، وهى بلاد متخلفة حضاريا ، وكان من المنتظر أن تبدأ الرسالة العالمية انطلاقها من بيئة متحضرة لها إمكانياتها التى تساعد على النهوض بتبعة الدعوة اليها فى الإطار العالمى .

كانت بلاد الفرس أو الرومان مثلا من أعظم البلاد حضارة وعمرانا فى ذلك الوقت ، فلماذا نبتت دعوة الاسلام فى هذه الجزيرة القاحلة ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

هذا التساؤل ، كما يقول العلماء ، دورى ، يمكن أن يرد أيضا لو جاءت دعوة الاسلام فى فارس مثلا ، فيقال : لماذا لم تجىء فى بلاد الرومان .

والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، ولكن مع هذا يمكننا أن نلمس بعض جوانب الحكمة فى هذه الخصوصية التى كرم الله بها جزيرة العرب ، فكانت مشرق النور للعالم كله ، وكانت استجابة لدعوة ابراهيم « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (١) .

وفيما يلى بعض المبررات التى رشحت هذه البلاد للقيام بأعظم ثورة فى تاريخ البشرية فى النواحى الانسانية الشاملة :

١ ـ القوم الذين يحملون عبء الدعوة العالمية لا بد أن تتوافر فيهم صفات تناسب هذه المهمة الضخمة ، من الصبر والتحمل والمخاطرة والشجاعة واحترام العهود والنجدة والمروءة وحب الحرية وتعشق الشرف والسؤدد ، والتمرن على التنقل وتعود الهجرات ،

---

(١) سورة ابراهيم : ٣٧

وعدم التبرم بحياة التقشف ورقة العيش ، والتطلع الى النهوض إذا يسرت سبله ، الى غير ذلك من المؤهلات الخلقية العظيمة .

والعربى فى هذه الناحية كان فارس الحلبة ، لا يبارى فى هذه الصفات التى تتطلبها الحياة المستقبلة ، ولقد أثبت التاريخ ما كان عليه أعظم الدول حضارة قبل بعثة النبى ﷺ من أخلاق صبغها الترف بصبغته الرخوة الناعمة ، وأنس أهلها الى الذل والعبودية بعبادة ملوكها وتقديس عظمائها ، وتسلطت عليهم الأفكار والميول التى خلقها متنبئوهم وفلاسفتهم .

والمأثور من شعر الجاهلية وأخبار الأولين يفيض بصفات النبل التى كان يفخر بها العربى ويحرص عليها ، لأنه يراها عنوان الشرف والكمال ، ولقد شب النبى ﷺ على خير ما يشب عليه ذوو الفضل واشتهر من صغره بالصفات العالية ، التى ترشحه للزعامة الكبرى ، بما تقتضيه من ترفع عن الدنايا واهتمام بالمطالب العليا ، ومن صدق ووفاء وأمانة وإيثار وكفاح وجلاد ، وعصامية وحرية ، ولقد تجاوبت أخلاقه مع أخلاق قومه وانصهرت جميعا فى بوتقة الاسلام الحرة الخالصة ، وتكون من هذه المجموعة وحدة تتحرك باسم الاسلام ، وتظللها جميعا راية التحرر والنهوض .

وما كانت المصادمات الأولى التى حدثت بين النبى وبينهم إلا نوعا من العناد القائم على عدم الرضا بالفناء فى شخصية إنسان آخر حتى طلب كبيرهم أن يكون له وحى ورسالة مثل محمد ﷺ ، « وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » (١) ، « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (٢) ، كما أن العربى يمتاز بصفاء العقل وتوقد القريحة وقوة الحجاج والفصاحة والبيان والاستنتاج والاستدلال ، وهى أمور لا بد فيها لمن يقومون بنشر الدين العالمى الذى يتطلب شرحا وتفسيرا وجدلا ونقاشا .

لقد كانت مفاخراتهم ومنافراتهم فيها من ضروب القوة ما لا يوجد عند غيرهم من أهل ذلك الزمان ، وكانت فراستهم واضحة فى الاستدلال بالنجوم وظواهر الطبيعة ، وفى القيافة ومقارنة الخصائص الانسانية ببعضها فى الأشخاص المتعددة وإلحاق الانساب على أساسها وعلاقة ذلك بنوع الأفراد أو فصيلة من الفصائل .

ولقد شهدت مقابلات العرب مع كبار الملوك صورا رائعة من قوة الجدل وامتلاك ناصية البيان ، يصور لنا

---

(١) سررة الأنعام : ١٢٤

(٢) سورة النمل : ١٤

كتاب « الفخرى » مشهدا منها فى مقابلة رسل سعد بن أبى وقاص لرستم قائد الفرس ، حيث سمع منهم حكما وأجوبة راعته وهالته ، لقد قال لأحد هؤلاء الرسل : ما هذا المغزل الذى فى يدك ؟ – يعنى رمحه – فقال له : إن الجمرة لا يضرها قصرها ، وقال لآخر : ما بال سيفك أراه رثا ؟ فقال : إنه خلق المغمد جديد المضرب، وآمن رستم بهذه المقابلات أن هؤلاء الأقوام جديرون بألا يقف حذاءهم أحد .

وقد يقال : إن الاسلام وحده هو الذى خلق هذه المعانى الكبيرة فى هذه القلوب المؤمنة والنفوس العالية المعتزة بدينها ، لكن معادن العرب كانت نقية وبذور النبل كانت موجودة ، فقواها الاسلام ونماها ووجهها وجهة الخير .

وأحيلك أيها القارىء على مقابلة النعمان بن المنذر لكسرى ، وعنده وفود الروم والهند والصين ، وما تحدث به عن فضل العرب فى عزها ومنعتها وفى أحسابها وأنسابها وسخائها وجودها وحكمة ألسنتها وديانتها وشريعتها والدفاع عما عابهم به كسرى من وأد البنات والتقاتل ، وتصوير ذلك بما يرجع الى عزة النفس والأنفة من العار وقوة البأس وحب الحرية .

وفى مطالعة ما قاله النعمان وما قاله أكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة والحرث بن ظالم وقيس بن مسعود وغيرهم ، ما يبين لك تأصل معانى الفضل والنبل فى نفوس العرب ، وشرف اللسان وقوة البيان ورباطة الجأش ، والصفات العالية التى امتازوا بها على الناس فى زمانهم .

وعلى هذا الوجه يمكن أن نفهم قول النبى ﷺ « إن الله اختار خلقه فاختار منهم آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختارنى من العرب ، فلم أزل خيارا من خيار ، ألا من أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم » رواه الطبرانى عن ابن عمر ، وروى الترمذى مثله وقال : حديث حسن ، كما وردت أحاديث مشابهة أو مقاربة تبين فضل العرب الذين اختار الله منهم نبيه ، رواها البخارى ومسلم .

ففى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت منه » وروى مسلم عن واثلة ابن الأسقع عن النبى أنه قال : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ،

واصطفى من قريش بنى هاشـم واصفانى من بنى هاشم » (١) ٠

٢ ـ اللغة العربية التى كانت اللغة الرسمية للدعوة الاسلامية ، والتى تأصلت جذورها فى الجزيرة العربية، أحيلك فى بيان ميزاتها على ما قاله « ارنست رينان » فى كتابه « تاريخ اللغات السامية » حيث جاء فيه :

من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية ، وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى ، عند أمة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ومن يوم أن علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال ، الى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر حتى إنها لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، لا نكاد نعلم شبيها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظـة لكيانها من كل شائبة ٠

ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين فى فضل اللغة العربية :

ولقد عاشت معنا هذه اللغة وهى هى الغنية بكل خصائصها الفنية العالية ، ولهذا كانت جديرة أن تنزل

---

(١) المواهب للقسطلانى ج ١ ص ١٣

بها أعظم رسالة للعالم كله فى جميع العصور ، تعيش مع الزمن ، وتوفى بكل حاجات الحياة • وتخلد ما خلد هذا الدين الحى ، الذى لا تتخلى عنه مسحته على طول العهد بنزول الوحى ، وكثرة التطور الذى مرت به الانسانية •

٣ ـ المكان الذى بعث فيه النبى أولا له صلاحية كبيرة لانطلاق الدعوة منه الى العالم كله ، فالجزيرة العربية فى مكان وسط يتصل بآسيا وأفريقيا وأوروبا ، وهى القارات التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، والتى كانت قد أخذت بحظ من التقدم تستعد به لتلقى هذه الرسالة ، ولقد كانت التجارة تعبر بها من الشمال الى الجنوب وبالعكس، وتصل آسيا وإفريقيا وأوروبا، فهى شريان حيوى ممتاز فى تلك الحقبة من التاريخ ، يمكن أن ترشح به لتكون مركزا لهذا الدين الجديد ، يوزع منه على الأقطار كلها •

٤ ـ ذلك الى أن جزيرة العرب فيها البيت العتيق أول بيت وضع للناس ، وبناه ابراهيم أبو الأنبياء، الذى تدين له جميع الأديان المعروفة فى ذلك العصر ، وفى انطلاق الدعوة منه إشعار للعالم بأن رسالة محمد منبثقة من هذه الرسالة التوحيدية الأولى ، وأنها امتداد لهداية الله للبشر عبر القرون ، ليس فيها

من الغرابة والنفور والشذوذ ما يستحق أن يصرف الناس عنها ، وكأن فيه وحيا بأن الأديان التى صادفت ظهور الاسلام لم تعد صالحة لهداية البشر بعد تحريفها وتغييرها وأن الواجب إرجاعها لأصلها الأول الذى انبثقت منه ، وهو الدين القيم الذى كان يدين به أبو الأنبياء .

٥ ـ هذا ، وقد كانت الأديان الموجودة فى العالم ممثلة فى بلاد العرب فى ذلك الوقت ، فكان فيها اليهود والنصارى والمجوس والوثنيون والصائبة وعبدة الجن والملائكة ومن اليهم . وقد وقف الاسلام فى مواجهة هذه الأديان ليظهر عليها كلها ، وكان انتصاره على المنتسبين اليها فى الجزيرة العربية انتصارا على كل من ينتسب اليها خارجها، حيث نازل كلا منها بالحجة والبرهان ، ومرن المسلمون الدعاة للاسلام على الحجاج مع هذه الطوائف فكانت مهمتهم سهلة فى مواجهتهم لأصحابها فى البلاد الأخرى ، التى كتب لهم أن ينشروا الدعوة فيها .

٦ ـ على أن هذه الجزيرة ، قد عهدت فى تاريخها الطويل أنواعا من الرسالات ، ولم تكن رسالة الاسلام وحدها هى التى بدأت فيها ، فكان هود فى الأحقاف جنوبى الجزيرة ، وكان صالح فى ثمود شماليها على الطريق الى الشام .

وكان شعيب فى مدين عند خليج العقبة ، وكان موسى الذى ناداه ربه بجانب الطور الأيمن على حدود الجزيرة ، وابراهيم الذى بنى البيت، واسماعيل الذى رعاه وورثه أولاده من بعده ، فهذه الجزيرة بامتداداتها كانت مهبط الوحى منذ القدم ، ولها عهد بالرسالات تتابعت فيها على مر العصور .

اللغة العربية وتبليغ الرسالة العالمية :

هناك شبهة واردة على عالمية الدين الاسلامى ، وهى نزول القرآن باللغة العربية ، كما قال تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (١) ، وقال : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته(٢) وقال : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » (٣) ، وقال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »(٤).

فالنص على أن القرآن عربى ، نزل بهذه اللغة لينذر به النبى ، وهى لغة قومه كل ذلك يثير تساؤلا : اذا

(١) سورة يوسف : ٢

(٢) سورة فصلت : ٤٤

(٣) سورة الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

(٤) سورة ابراهيم : ٤

كان القرآن نزل وبلغ بهذه اللغة ، أفلا يدل ذلك على أن الرسالة هى لقومه العرب فقط ، لأنهم هم الذين يستطيعون أن يفهموا القرآن ويقوموا بتكاليفه ؟ ، وكيف يكلف قوم غيرهم بالاسلام مع أن كتابه لا يفهم بلغة غير العربية ، ولا يمكن التعبد به ولا حفظه مع ذلك ، وليس من عدل الله أن يطالب أمة يوم القيامة باتباع رسول لم يأت اليهم ، ولا وقفوا على كتاب بلسانهم ؟ وقد حكى ابن تيمية هذه الشبهة فى كتابه « الجواب الصحيح » (١) .

ويجاب على ذلك بأن جميع الآيات تدل على مجرد وصف القرآن بأنه عربى وليس فيها ما يدل على قصر توجيهه على العرب ، بل ذكرت أن الحكمة فى كونه عربيا تيسير فهمه على الناس وتعقل ما فيه وإمكان تذكره وتدبره ، ومعنى هذا أن اللغة العربية لون ثقافى فقط لا شأن له فى العصبية والعنصرية ، وقد بلغ النبى الرسالة للعرب بلغتهم وهى لغة القرآن ، والى جانب كون اللغة العربية لغة النبى ولغة بيئته التى نشأ فيها وابتدأ منها دعوته ، فان لها من الميزات على سائر اللغات ما رشحها وجعلها اللغة الرسمية

---

(١) ج ١ ص ٢١٩

الأولى لأعظم رسالة فى الوجود ، كما سبقت الاشارة اليـــه •

لقد بلغ النبى الرسالة الى العرب بلغتهم ، والى غيرهم باللغات الأخرى ، فـكتب للعظماء والمــلوك بلغته الرسمية كتبا حملها من يستطيع ترجمتها أو تفهيم ما فيها الى المرسل اليهم بلغتهم أو بوساطة المترجمين كما سبق ذكره ، وقوم محمد الذين أرسل اليهم بلسانهم ، كما تدل عليه الآية المذكورة آنفا ، هم حواريوه والناقلون عنه ، المتحملون لدعوته ، والمبلغون إياها للناس ، فقومية اللغة هنا لا تعنى قومية الدعوة والرسالة ، لأنهــا ، كما قلت ، لون ثقافى ، والثقافة أمر مشاع بين الأجناس وبين البيئات فى كل العصور ، ولا يصح أبدا أن تكون اللغة أو اللون الثقافى حاجزا يقسم الناس على أســاسه بما يفصــم عروتهم ، ويطغى على إنسانيتهم الجامعة ، وأداة الحصر فى هذه الآية وهى « ما وإلا » لا تدل على حصر الرسالة ، ولكن على حصر اللسان فى أنه لسان قومه ، ولا يلزم من حصر اللغة حصر الرسالة وجعلها للعرب خاصة •

على أن نزول القرآن باللغة العربية ليس فيـــه صعوبة لفهم الاسلام ومعرفة ما دعــا اليه القــرآن

والتزام تكاليفه ، ذكر ابن تيمية : أن شرط التكليف هو تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول اليهم ، وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده ، ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان ، أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة من يترجم معناه .

وهذا مقدور للعباد . ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التى أرسل بها وجب عليه ذلك ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب [١] .

ثم قال أيضا : وجمهور الناس لا يعرفون معانى الكتب الإلهية ، التوراة والانجيل والقرآن ، إلا بمن يبينها ويفسرها لهم ، وإن كانوا يعرفون اللغة . فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ، ونهاهم عنه . ثم قال : فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بما ينقل عن الرسول تارة المعنى وتارة اللفظ ، ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى، والقرآن تجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء . وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربية . وبعضهم جوزه

---

(١) ج ١ ص ١٩٥

مطلقا ، وجمهور العلماء منعوا أن يقرأ بغير العربية وإن جاز أن يترجم للتفهيم بغير العربية ، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه [١] .

وقد روج هذه الشبهة اليهود والنصارى . ولكن كيف يتملص اليهود والنصارى من العرب من الإيمان بمحمد لنزول القرآن بالعربية ، وهم أنفسهم يعرفون بحكم إقامتهم أو اتصالهم البعيد المدى . على أنهم هم قبلوا دين موسى وعيسى مع أن الكتاب الذى نزل على كل منهما لم يكن باللغة العربية ، ومع ذلك آمنوا بهما ، إما بتعلم لغة التوراة والانجيل . وإما بنقلهما بطريق الترجمة . وقد ثبت أن هؤلاء اليهود والنصارى جادلوا النبى ﷺ فى أمور عرفوها من القرآن . فوسيلة العلم بالرسالة كانت ميسرة بأى نحو من الأنحاء فلا حجة لهم فى التملص من المسئولية .

هذا وقد قال الزمخشرى فى معرض الحديث عن عموم الدعوة الاسلامية ، مع نزل القرآن باللغة العربية : لا يخلو إما أن ينزل ـ القرآن ـ بجميع الألسنة ، أو بواحد منها . فلا حاجة الى نزوله بجميع

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٦

الألسنة ، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل، فبقى أن ينزل بلسان واحد ، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب اليه ، فاذا فهموه عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم ببيانه وتفهمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم . كما يجب أن يعلم أن فهم كل آية من القرآن ليس فرضا على كل انسان ولو كان مسلما بل تجب معرفة ما أمر الله به بأية عبارة كانت .

واجبنـا نحو الدين العـالمى

الآن وبعد أن عرفت أيها القارىء الكريم أن الدين الاسلامى هو الدين الوحيـد التى يحمل خصـائص الدعوة العالمية ، وأنه الدين الوحيد الذى ختمت به الأديان وصلح لكل تطور فى الحياة البشرية عـلى اختلاف بيئاتها ومستوياتها ، وعرفت تاريخ المؤامرات التى حيكت ضده لتحد من نشره أو تشوه من جماله ، ومقدار ما تبذله الأديان الأخرى ، وبخاصة المسيحية، فى محاولة الانتشار فى العالم على نطـاق أوسع ، ومقاومة زحف الاسلام الذى يكاد بقوته الذاتية أن يطيح بمخططات الأعداء ، وما ينفق فيها من أموال طائلة .

بل إن الأعداء وهم يحملون لواء التبشير العالمى ، لم يستحوا أن يبشروا بدينهم فى وسط المجتمع الاسلامى ليحولوا المسلمين عن دينهم ويسلخوهم من شخصيتهم، ورأيت الوسائل الخفية التى وضعوهـا ليصلوا الى غرضهم فى غفلة لا يشعر معها الضحية أنه وقع فريسة لهذه الأساليب الدنيئة .

الآن يجب علينا أن نتنبه ونستيقظ ونعرف واجبنا نحو هذا الدين الحنيف ، يجب علينا أن نتابع الدعوة اليه ، ونزيد من نشاطنا فى هذا المجال ، لأنه لا ينبغى أن ينشط الأعداء ، مع ما هم عليه من باطل ، فى نشر أباطيلهم ، ثم نقف نحن ساكتين أو متخاذلين ، مع ما نملك من دين عالمى أمرنا بالدعوة اليه على نطاق واسع ، وكنا بالدعوة اليه والى كل خير ، خير أمة أخرجت للناس ٠

والمشاهد أنه توجد فى الغرب الآن حركتان قويتان تتصلان بالشرق والاسلام :

(ا) أما الحركة الأولى : فهى الاهتمام بالشرق من أجل غرضين : استغلاله واستعماره ٠ وهو من أجل ذلك يبحث فى علومه ومعارفه وحضاراته وإمكانياته ومنابع الثروة فيه ، ودراسته دراسة وافية ليعرفوا المنافذ الى استغلاله ، والطريق الى السيطرة عليه ، إن لم تكن سيطرة عسكرية أو سياسية فلتكن سيطرة اقتصادية أو ثقافية أو سيطرة من أ ىنوع آخر ٠

والناظر فى دراساتهم يعجب لهذا الانتاج أشد العجب حيث توفروا عليها ، وجاءتهم الامدادات والامكانيات الواسعة ، واستطاعوا أن يكتشفوا مناطق مجهولة

لأصحابها ، وأن ينشروا كتبا وأبحاثا لم يتنبه المتصلون بها الى قيمتها ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا مثلها ، حتى صارت الدول الشرقية تتلمذ على هـذه الأبحـاث والاكتشافات ، وكثير من هذه الأبحاث والدراسات خاص بالاسلام والمسلمين ٠

يقول « د ٠ ج ٠ ريشتر » : إن التطور الاسـلامى قد أصبح من أكبر الحوادث التاريخية للعصر الحـاضر ، فيجب تتبعه بأكبر ما يمكن من الانتباه ٠

وقد أنشئت كراسى في معظم الجامعات الغربية لهذه الدراسات العربية والاسلامية والشرقية ٠ فلا يجـوز للشرق وللمسلمين بخاصة أن يكون غافلا وسط هـذا الضجيج العلمى ، ولا أن يكون منصرفا عن تراث أو قضية يحشد الغرب لها الحشود الواسعة الضخمة ٠

(ب) والحركة الثانية : هى البحث عن دين عـالمى تطمئن اليه النفس ، ويحل المشاكل الداخلية المعقدة ، التى لا يستطيع العلم حلها ، ذلك لأن العلم على الرغم من تقدمه السريع فى الغرب ، لم يستطع أن ينجح إلا في المسائل المادية ٠

أما المسائل الأدبية والنواحى الخلقية والفضـائل النفسية فلم يستطع العلم أن يمسها بالتهذيب ، فإن

النفوس مــا تزال ترتع فى حمــأة الحيــوانية وتدفع بأصحابها الى ارتكاب كل ضروب الوحشية ، فهى فى حاجة ماسة الى رادع قوى من أدب عال فوق الوجود المادى الذى أغرقوا فيــه ٠

ولهذا فإن العالم المتمدين أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميــع نواحيها ٠ وقد مر بك بيــان مــا تطلبوه من مواصفات للديانة الطبيعية التى ينشدونها، وأن الاسلام جاء بأحسن منها فى كل مجال من المجالات، والانسان مهما كان عنده من علم أو معرفة لا يستطيع أن يستغنى عن الدين أبدا بصورة من الصور ٠

يقول « أوجست سباتييه » فى كتابه «فلسفة الأديان»: « لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا رأيتنى محفوزا للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، فالدين لازم معنوى من لوازم ذاتى ٠ يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم : قد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض عينــــه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها ، وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكبر قــوة فى الحــياة الاجتماعية البشرية ، فهى ليست أقل تشبثا منى بأهداب الدين

... الى أن قال : فالدين إذاً باق وغير قابل للزوال وهو فضلا عن نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك الينبوع يزداد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة » .

ويقول « أرنست رينان » فى كتابه « تاريخ الأديان»: « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والفن ، ولكن يستحيل أن يبطل التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى ، الذى يود أن يسود ويحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الترابية » .

ونحن لا ننكر أن فى الغرب أيضا حركة ضد الأديان، ولكنها فى حقيقتها موجة ضد أشكالها الخارجية ، لا ضد روحها ومعناها بل للدين الخالص اليوم فى الغرب دولة لم تكن فى أى عهد من عهود المدنيات السابقة ، فأى دين من الأديان الموجودة يستطيع أن يثبت أنه هو الدين الخالص من التقييدات البشرية ، كان هو الدين الذى ينشده العلم وتؤيده الفلسفة .

فإذا كان الغرب يهتم بالبحث عن دين عالمى يتفق مع مقررات العلم ، كانت الفرصة سانحة لنبين ذلك للعالم ، ليروا فى الاسلام طلبتهم التى ينشدونها من زمن طويل . لهذا كله يجب علينا أن ننشط فى تبليغ الدعوة العالمية ، حتى لا تطغى عليها الأديان الأخرى، ونصاب نحن من شررها .

منهج الدعوة الى الدين العالمى

إن التخطيط أمر ضرورى لنجــاح كــل مشروع ، والعمل اذا لم ينفذ حسب خطــة موضوعــة واضحة المعالم والأهداف ، مستوفية كل الامكانيات ، قل أن يكتب له النجاح ، والعمل العظيم الخطير لا بد له من تخطيط يناسب عظمته وخطورته .

والدعوة الى الدين الاسلامى العالمى من أعظــم الأمور خطرا وأجلها قدرا ، وبخاصة اذا كانت الظروف المحيطة بها ظروفا متغيرة حسب تغاير الميدان ، واذا كانت فى محيط يختلف فى لغته عن لغــة الداعــين ، ويختلف فى عاداته وسائر أحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

وعلى ضوء ما سبق من عمل الرسول وأصحابه فى نشر الدعوة نستطيع أن نضع منهاجا نحاول به أن نرسم الطريق الواضح للدعوة الاسلامية ، وهو كله من وحى قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١) .

---

(١) سورة النحل : ١٢٥

أولا :

لابد من دراسة وافية شاملة للبلاد التى توجه اليها الدعوة من جهة نظام الحكم والمذهب الاجتماعى والعقيدة والعادات والامكانيات المادية وظروفها المختلفة . ذلك أن ظروف العالم تتغير من زمن الى زمن ومن منطقة الى منطقة ، فقد تكون الدعوة ميسرة فى مكان ما ومتعثرة فى مكان آخر ، وقد تكون الموضوعات الهامة لمنطقة من المناطق غيرها فى منطقة أخرى ، وقد تتطلب ظروف بلد مبعوثا معينا من طراز خاص يتناسب مع جو البلد الذى يوفد اليه ، الى غير ذلك من الاعتبارات المختلفة .

وهذه الدراسة مهمة للغاية ، فان التقصير فيها يعنى السير على غير هدى والتخبط فى طريق الدعوة، ونتيجة ذلك العقم فى الجهود والأضرار البالغة التى تكون بمثابة رد فعل للجهل والاندفاع الأعمى والتسرع الأحمق ، ويرحم الله القائل :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقا عن غرة زلجا

إن هذه الدراسة الواعية هى أساس التخطيط للدعوة ، وهى تتطلب جهدا كبيرا وزمنا واسعا ،

والغرب حين أراد أن يستغل ثروات الشرق أو يبسط نفوذه عليه ، أنشأ الدراسات الواسعة والهيئات العلمية الضخمة التى تضم كبار المختصين فى جميع الفـروع مع إغداق الأموال عـلى هـذه الجهود ، واستمروا يجمعون المعلومات تحت أسماء مختلفة ، وبشعارات خلابة خداعة ، حتى استطاعوا أن يعرفوا من دقائق البلاد مالا يعرفه أهلها ، وحتى استيقـظ الأهـالى فوجدوا أنفسهم تلاميذ لهؤلاء الأجانب أخص ما كان يجب عليهم أن يعرفوه .

وبعد هذه المعرفة الشاملة استطاعوا أن يخططوا للوصول الى الأغراض التى يريدونها ، فكان عملهم سليما ، وجهدهم مثمر لأنه قام على أساس متين . فالدعوة الاسلامية للدين العالمى لابد لها من دراسة واعية للأرض التى تلقى فيها البذرة ، ومعرفة أجوائها المختلفة ليمكن أن نجنى من وراء الجهد ثمرة طيبة.

وإن من الحمق أن نجمد على أسلوب معين اتخذه السابقون فى نشر الدعوة لنسير عليه ولا نحيد عنه ، ونردد قولنا : الاتباع خير من الابتداع ، ونطبقه على عمومه فى كل المجالات ، ذلك أن الظـروف تتغير والعالم يتطور ، والبلاغة فى القول والعمل هى مراعاة مقتضى الحال .

ثانيـا :

لا بد من الافادة من طرق المبشرين والدعاة الى الأديان والمذاهب الأخرى ، ودراسة أساليبهم وخططهم فى الدعوة ، لنقرع الحجة بالحجة إن كان هناك نزال فى الميدان ، ولنقاتل العدو بالسلاح الذى يقاتل به إن اضطرتنا الظروف الى مثل هذه المواقف .

والى جانب هـذا فإن أساليبهم قد تفننوا فيهـا وابتكروا منها كثيرا ، لأنهم فكروا فيها فى وقت كانت الامكانيات فيه متوفرة لديهم وكان العـالم فيه على درجة من النضج والرقى تستحق معها أن يعمل الحساب فى الدعوة بدقة وتناسب ، ولهؤلاء الدعاة تنظيمات وترتيبات لم تكن أمثالها موجودة فى العهود الماضية ، فالدعوة الاسلامية مثلا فى أيام الضعف السياسى للدولة الاسلامية اتخذت طابعا فرديا خالصا ، فكان لكل فرد أسلوبه الخاص فى نشر الدعوة قل أن يفيد منه داع آخر ، ولكن المهمة الآن ضخمة وشاقة لأن لنا أعداء ينافسوننا الدعوة الى أديانهم ، بل يحاولون أن يخرجوا المسلمين من دينهم ، فلا بـد من أن تكون عنـدنا يقظـة تامة ومعرفة بأساليبهم لنفيد منها فى هذا الميدان ولا نقنع بما عندنا من خبرة قليلة أخذناها من الماضى ، فإنها قل أن تنجح فى الوقت الحاضر أمام الخبرات الحديثة .

إن القائمين على التبشـــير يضعون خططا منظمة محكمة ، لأنهم جماعة متخصصون فى فروع كثيرة من العلم يخدم بعضها بعضا ، وبضم خبراتهم ونتـائج تخصصاتهم يوجد منهج مدروس متكامل واضح قوى نفـــاذ .

إن الحصيلة العلمية عند الداعية غير المسلم قليلة بل ضئيلة ، وهى الحصـــيلة الدينية التى يريد أن يبث فكرتها بين الناس ، لكن حسبهم من الدعوة أن يلقوا بذرة واحدة فى أرض واسعة بطريقة علمية ومنهـج محكم ، ستنمو وتثمر وتعطى النتيجة المطلوبة .

وعلى العكس من ذلك يكون بعض الدعاة المسلمين، إنهم يملكون حصيلة علمية دينية ضخمة ، وقصارى جهد الواحد منهم أن يفرغ كل ذلك فى وسط قوم يظفر منهم فى النهاية بكلمة إعجاب على ما يملك من علم ، دون أن يكون لذلك أثره العميق العملى المنتج ، كالذى يفرغ قنطارا من البذور فى أرض سـبخة أو بطريقة غير منظمة ، ويكفيه أنه أدى ما عليه بإفراغ جعبته فى هذا الحقل ويطول بـه الانتظـار لا يرى لجهده أثرا .

إن قيمة العلم والجهد مرتبطة بالنتيجة والتجاوب الذى يكون من السامعين مع العلماء ، وهذا التجاوب

له فن وراء غزارة العلم ، وهو التنظيم الدقيق وتحرى الأوقات والأماكن المناسبة والخبرة بميول النفس وقواها والانفاق من العلم الذى يلائم كل ذلك .

إن رصاصة واحدة يحكم الرامى تصويبها فتصل الهدف خير من ألف رصاصة تنطلق بغير هدف تتجه اليه ، والجاهل بالسباحة ينزل الماء فيظل يضرب فيه بقوة على غير هدى فتخور قواه ويفشل وقد يغرق، والسباح الماهر يستطيع بقوة قليلة منظمة أن يصل الى هدفه بسلام .

لا عيب أبدا أن نفيد من تجارب الغير مهما كانت عقيدته واتجاهاته ، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولا يضره من أى وعاء خرجت ، لقد أفاد النبى ﷺ من خبرة سلمان الفارسى ، فحفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب ، كما كان يفعله قومه عند الحروب، وتطور الحياة يفرض على الناس أن يتبادلوا الخبرات طوعا أو كرها .

إن الدعوة الى الأديان كالحرب بل هى حرب ، لابد فيها من التفنن فى الأسلحة ووسائل القتال ، ودراسة الميادين والتخطيط للمعركة قبل خوضها .

ورب جيش قليل العدد وافر الخبرة والتنظيم يهزم جيشا كبير العدد تقل فيه الخبرة وتسوده الفوضى ،

فليكن سلاحنا كسلاح العدو ، إن لم يكن أحسن منــه، وليكن تدريبنا الميدانى كتدريبه إن لم يتفوق عليه ، والبقاء ـ كما هو معروف ـ للأصلح ، ومن الصلاح النظام وجودة الأداء .

ثالثــا :

لا بد من إنشاء جهاز يوجه الدعوة ويعد لها كل الامكانيات والترتيبات المختلفة ، يكون هذا الجهاز جامعا لأرباب الفكــر العــالى والتخصصات الفنيــة المختلفة التى تتصل بالدعوة ، وتكون مهمته الأولى الأساسية هى الــدعوة النقية الخالصــة بعيدة عــن المؤثرات المحلية والأغراض الخاصة ، ولو أن هذا الجهاز كان واحدا للعالم الاسلامى كله يختار له مقر يصلح ليكون منه المنطلق للدعاة والدعوة وتشترك فى إدارته والاشراف عليه شخصيات عالمية تمثل الدول الاسلامية ، لكان ذلك أوفق .

ولعل مجمع البحوث الاسلاميــة التابــع للأزهــر الشريف ، والذى يضم مؤتمره علماء العالم الاسلامى وأقطاب الفكر فيه ، يكون خير من يقوم بهذا الدور .

ولعل القــــاهرة فى موقعها المتوسط بين العــــالم الاسلامى ، وفى إمكانياتها الواسعة تكون أنسب مكان لهذا الجهاز الموجه للدعوة .

ومهما يكن من شىء فإن التفكير فى تخصيص جهاز واحد للدعوة قد يكون أفضل من تفرق الجهود وإقامة مراكز وأجهزة مختلفة فى بلد واحد أو بلاد متعددة لا تجمعها رابطة واحدة ، على أنه إذا وجدت أمثال هذه المراكز المتعددة فليكن لها جهاز واحد ينسق جهودها ويخطط لها التخطيط العام ، ويرسم لها السياسة الموحدة التى تلتزمها حتى تضمن لها التوفيق والنجاح ، وعدم التعارض والتضارب كالذى كان يحدث بين جمعيات التبشير التى أنشأتها الدول الاستعمارية ووجهتها لتمهد لها الطريق لكسب أكبر عدد ممكن من الأنصار ، وأكبر مساحة من النفوذ ، فهذه الجمعيات لم تكن مخلصة فى الدعوة الى دينها أو مذهبها ، بل كان الغلب والتصارع طابعها ولهذا فشل كثير منها ، ولم تستطع أن تنافس الدعوة الاسلامية على ما عندها من بساطة فى وسائلها ، فقد كانت تزحف بجهود التجار والرحالة والمهاجرين وما إليهم ، لقد نشرت جريدة « يونيفرس » الكاثوليكية ، أن عدد من اعتنقوا الاسلام خلال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة فى أفريقيا بلغ أكثر من عشرين مليونا ، مقابل أقل من عشرة ملايين اعتنقوا المذهب الكاثوليكى على أيدى رجال الارساليات (١) .

---

(١) الأهرام ١٩٥٤/٩/١٥

لقد انصرف الناس عن هذه الارســاليات عند ما ظهرت نواياها السيئة ، وأقبلت على الاسلام كما سبق بيانه ، لأنه لا يقصد الى غرض استغلالى من معتنقيه .

ولسوء نيات الارساليات حدثت مصادمات عنيفة بينها أدت الى القتل ، لقد أرسل « جوان الثانى » ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ م مبشرا اسمه « كوفيلهام » الى الحبشة فأنشأ علاقة قوية بينهــا وبين البرتغـــال ، واستطاع أحد الرهبان الذين جلبهم الى الحبشة أن يحول ملكها (سو سينيوس) الى الـكاثوليكية ســنة ١٦٢٤م ، واستعد الأحباش للانضمام الى الـكنيسة الرومانية لولا عناد بطريرك اللاتين (مندر) الــذى أكرههم على اعتقاد الشعائر اللاتينية ، وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، فثاروا وقتلوا المبشرين البرتغاليين ومن تبعهم من الأحباش سنة ١٦٤٠م . وحاولت فرنسا التبشير بالحبشة فلم تفلح وقتل مبشروها المرسلون الى سواكن ومصوع ، كما نافستها ايطاليا أيضا فى هذا الميدان .

لقد كان للمذاهب المسيحية مبشرون ، ولكل دولة مبشرون وحدث ما حدث من التنافس نتيجة لعــدم الاخلاص فى الدعوة ، الى الدين ، واذا كنا ننــادى بوحــدة الجهاز الــذى يشرف عــلى توجيه الــدعوة

الاسلامية فى العالم فذلك لكى نتلافى أمثال هـــذا التنــافس بسبب الميول والأغــراض الخاصة للــدول والجماعات .

لقد قال المسيو (بونيه مورى) فى كتابه (الاسلام والمسيحية فى أفريقيا) ملخصا لجهود المبشرين فيها : إن نجاح هذه البعثات الإنجيلية كلها فى أفريقيا دليل على كون قوة الدعاية النصرانية لا تغلب فيما لو تجردت عن الأغراض السياسية ، فانه لا توجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية .

إن التفكير فى تــكوين جمعيــات وإنشاء منظمات وأجهزة لمباشرة الدعوة بطريقة منهجية منظمة تفكير حديث فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، وقد كانت تركيا تبحث فى إنشاء جمعية فى القسطنطينية لنشر الدعوة فى أوغندة ووسط افريقيا على أثر ما كتبه الرحالة الشهير « ستانلى » سنة ١٨٧٥م فى الصحف الانجليزية يحث على إرسال مبشرين الى أوغندة ، ولكن لم يتم تأليف هذه الجمعية بسبب نشوب الحرب الروســية التركية سنة ١٨٧٨م ، وكذلك فكرت مصر فى هـــذا الموضوع عندما حددت الحكومة المصرية الانجليزية فى السودان مناطق النفوذ للجمعيات التبشيرية المسيحية، وفى سنة ١٩١٠م أسس السيد محمد رشيد رضا جمعية

فى القــاهرة كانت تهــدف الى تأسيس دار للــدعوة والإرشاد .

وشبه القارة الهندية خطت خطوات واسعة فى تكوين هذه الجمعيات ، ومن أحسنها : جمعية « أنجومان حامى إسلام » فى « أجمير » وجمعية « أنجومان حمايت إسلام » فى « لاهور » ، وجمعيــة « أنجومان وعظ إسلام » ، « أنجومان تبليغ إسلام » فى حيــدر أباد الدكن . وكانت ترمى الى تحويل الهندوكــيين الى الاسلام .

ومن الجمعيات التى أنشئت فى القـــرن العشرين « مدرســة إلاهيت » فى « كونبور » لنشر الرسائــل للدفاع عن الاسلام ، وجمعية « أنجومان هدايت إسلام» فى « دهلى » أعظم الهيئات المنظمة ، وينضم اليهــا عدد كبير من الجمعيات الأخرى يبلغ أربعا وعشرين، وترسل هذه الجمعية الدعاة للدعوة الى عقائد الاسلام وعقد المناظرات مع غير المسلمين ، وتقوم بنشر الكتب التى ترد على هجمات الجمعيات المعادية .

ومن الهيئات التى تحمل عنوان الدعاية للاسلام ، جمعية التعريف الدولى بالاسلام فى القاهرة ، والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية بوزارة الأوقاف بالقاهرة ، الذى يرسل الكتب والمصاحف لكثير من البلاد الاسلامية

المحتاجة الى التزود من المعارف الدينية ، وينشر مجلة ومطبوعات باللغات المختلفة ويرسلها الى بلاد كثيرة٠

والأزهر هو المؤسسة الأصيلة التى تضطلـع بأكبر نصيب فى هذا الميدان ، نظرا لمركزه فى العالم وثقـة المسلمين به ، وله بعوثه الكثيرة فى الخارج وكتبـه ومصاحفه التى يرسلها الى العالم الاسلامى والمعاهد التى يشرف عليها فى خارج القطر ، والمراكز الاسلامية فى أهم البلاد فى أوروبا وأمريكا وبالمجلة التى تخصص جزءا منها باللغات بالأجنبية ليفيد منها من لا يعرفون العربية من مسلمى العالم ، وباستقباله لوفود الطلاب من جميع أنحاء العالم ، يعلمهم ويرعاهـم ماديا واجتماعيا ، حتى يعودوا الى بلادهم رسل هـداية وإصلاح ، ولو مكن للأزهر فكان نشاطه أوسع وأثره أعظم ٠ وهذا هو أملنا فى عهده الجديد ، وبخاصـة فى هذه الظروف التى تحتاج الى مزيد من العناية بالناحية الروحية فى العالم أجمع ٠

رابعـــا :

لا بد من إعـداد الداعى الذى يتولى نشر الدعـوة العالمية فى الأقطار الخارجية ، واعداده يقوم عـلى ثلاث دعائم أساسية هى التمكن العلمى ، أى وفرة

المادة وصدقها ، الدراية الفنية التى تساعده على حسن استعمال هذه المادة ، والكمال الخلقى والخلقى.

١ - التمكن العلمى هو زاد الداعى ، فليس كل انسان يصلح لأداء هذه المهمة ، والداعى سيتحدث أو يرغم على التحدث فى موضوعات شتى يفرضها عليه واقع البيئة التى يدعو فيها ، والظرف الذى يتحتم عليه مراعاته ، فلا بد أن يكون عنده علم بكل ما يمكن أن يوجه اليه من أسئلة أو يطلب منه من حديث .

وقد كان النبى ﷺ يختار مبعوثيه ويتأكد من مقدرتهم العلمية فى النوع الذى يوفدون من أجله ، ومن كيفية التصرف فى المواقف الحرجة ، حتى يطمئن اليه ويرجو الخير من وراء بعثه . لقد زود النبى ﷺ معاذ بن جبل بالمعلومات الكافية والتوجيهات اللازمة عندما بعثه الى اليمن فقال له : « إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فادعهم الى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن

هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (١) .

وبعد أن زوده بالقدر اللازم من العلم فى مهمته التى أرسل من أجلها اختبر مدى قدرته على التصرف عندما يجد شىء لم يتلق العلم به أو التوجيه بخصوصه ، قال له : كيف تصنع إذا عرض لك قضاء قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟ قال : أجتهد برأيى لا آلو جهدا . قال معاذ : فضرب رسول الله صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله »(٢) .

إن الثقة العلمية مطلوبة فى الداعى كما يشير اليه قول الرسول ﷺ فيما سبق « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وأداها كما سمع » أى أداها أداء صحيحا متقنا لا تزيد فيه ولا تشويه بحال .

وللتمكن العلمى مظاهر نشير الى بعضها فيما يلى:

(أ) أن يكون على معرفة تامة بأحكام الكتاب والسنة ، فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وغيرها ، وعلى دراية كافية بالسيرة النبوية والتاريخ

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه أبو داود والترمذى .

الاسلامى ، وبالجملة أن يكون عالما بالعلوم الأصيلة للثقافة الاسلامية بفروعها المختلفة ، لأن الداعى سيكون ممثلا للدين كله وللمعهد الذى أوفده ، فلا بد أن يكون خير ممثل للدين ولمعهده .

(ب) أن يجمع الى العلم القديم علما حديثا بالمعارف المختلفة التى توضح العلوم الدينية بأسلوب العصر ، لأن الناس ينتظرون من ممثل الدين ومعهده أن يكون حجة فى العلوم الشرعية ، أو خبيرا وقديرا بالنوع الذى ينشره ، كما تنتظر منه أن يكون نموذجا مشرفا يعيش مع العصر وأحداثه ، ويتصل بالمجتمع وما يعج به من مشاكل ، وبالثقافة وما تتنفس عنه من معلومات لأن ذلك كله ، الى جانب وضع الثقة فيه والاحترام له ، يساعده على إبراز مبادىء الاسلام وهدايته إبرازا ميسرا .

(ح) أن يكون على دراية بلغة القوم الذين أرسل اليهم ، فاللسان أكبر وسيلة للاندماج مع الناس والالتحام بهم ومعرفة أحوالهم ، وأيسر طريق لإيصال المعلومات الدينية اليهم وحسن تفهمهم لها ، والعاجز أو الضعيف فى لغة القوم مقيد بالأغلال لا يستطيع التحرك ولا الانطلاق ، وأعمى لا يهتدى الى الطريق إلا بمن يأخذ بيده ويعتمد عليه .

ولعل هذا هو السر فى أن الرسل تبعث بألسنة أقوامها كما قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (١) •

والتعبير بالتبيين فيه اشارة الى التمكن من اللغة ، لأن التبيين شرح وتوضيح ولا تفيد فيه شذرات لغوية أو عبارات مبهمة غير واضحة ، بل ولا أساليب غير قوية • وقد رأيت فيما سبق أن رسل النبى بالكتب الى الملوك كانوا على علم ، ولو الى حد ما ، بلغات البلاد التى أوفدوا اليها ، وكانت مهمتهم بسيطة لا تكاد تعدو الدعوة العامة الى الإيمان ، ولكن الذين كانوا يقيمون ليعلموا الناس كان لا بد فيهم من إجادة لغتهم • وقد أمر النبى ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لسان اليهود لمعرفة كتبهم الواردة منهم ، وللاتصال بهم اتصالا صحيحا مطمئنا • وكان أبو جمرة يترجم بالفارسية بين ابن عباس وبين وفد عبد القيس كما رواه مسلم (٢) •

وكتب النبى ﷺ الى بعض القبائل كانت تراعى فيها لهجاتهم وألفاظهم التى يتفاهمون بها ، وكان رده على وفودهم مناسبا للغة التى تحدثوا بها ،

---

(١) سورة ابراهيم : ٤

(٢) ج ١ ص ١٨٦

عندما وفد بنو نهد عليه قام زعيمهم يشكو الجدب فقال : أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة بأكوار الميس ، ترتمى بنا العيس • نستحلب الصبير ، ونستخلب الخبير ، ونستعضد البرير ، ونستخيل الرهام ، ونستجيل الجهام ، من أرض غائلة العطا ، غليظة الوطا ، قد نشف المدهن ، ويبس الخعثن ، وسقط الأملوج ، ومات العسلوج ، وهلك الهدى ، ومات الودى •••

فدعا لهم النبى قائلا : اللهم بارك لهم فى محضها ومذقها وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر ، وافجر له الثمد ، وبارك فى المال والولد •

ثم كتب معه كتابا الى قومه جاء فيه : لكم يا بنى نهد فى الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو الضنان الركوب والفلو الفبيس ••• ومن أراد تفسير ذلك فليرجع الى المواهب اللدنية للقسطلانى (١) •

فالتمكن من لغة القوم لا بد منه لنجاح الدعوة •

٢ ــ الخبرة الفنية : إن الدعوة تربية وتعليم ورعاية وتوجيه لا بد فيها من الدراية بأصول القواعد التربوية والأحوال النفسية ، والجاهل بهذه الطرق يخفق كثيرا

---

(١) ج ١ ص ٢٦٥ •

فى مهمته ، فقد يضر من حيث يظن أو يعتقد أنه ينفع ، وقد يكون تصرف واحد منه قاضيا على كل جهوده .

لقد نصح النبى ﷺ معاذا وزميله حين أرسلهما الى اليمن قائلا : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » (١) . ولما شكا الناس اليه إطالة معاذ فى الصلاة قال له : « أفتان أنت يا معاذ » ؟ .

ومن مظاهر الفنية فى الدعوة ما روى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، عندما بلغه أن عظيما بالشام يسرف فى الشراب ، كتب اليه آية « غافر الذنب وقابل التوب » وآية « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » .

وقال لحامل الكتاب : لا تدفعه اليه حتى يصحو من سكره ، ثم قال لإخوانه : ادعوا له بالتوبة . فحسن حال الرجل ، ثم قال عمر : هكذا افعلوا اذا أردتم الدعوة ، وهذه الخبرة الفنية مستقاة من قول الله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (٢) ، وسيأتى شرح الحكمة فيما بعد .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة النحل : ١٢٥

٣ ـ مما يلزم لنجاح الداعى أن يكون على خلق كريم ، وعلى هيئة غير منفرة .

(ا) فالأخلاق سلاح فعال فى نجاح الدعوة ، وهى فى الوقت نفسه دعاية صامتة ، قد تغنى عن الدعاية القولية ، والأخلاق اللازمة للداعى كثيرة ، منها الصبر والتحمل ، فميدان الدعوة ميدان جهاد لا بد فيه من متاعب ومشاق ، ينبغى أن تقابل بالصبر ، ورسول الله ﷺ هو قدوة الدعاة فى ذلك ، والشواهد كثيرة زخرت بها كتب السيرة .

ومنها عدم الحرص على الدنيا ، والعفة والقناعة التى تملأ النفس رضا ، والقلب طمأنينة ، وتكف عن التفاهات والدنايا التى يتردى فيها الشرهون الحريصون ، وصدق رسول الله إذ يقول « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » (١) .

فليكن رائد الداعى من دعوته هو رضاء الله وحب الخير للناس ، وفى الحديث الشريف « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة

---

(١) رواه ابن ماجة .

همه جمع الله له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » (١) .

ومن الأخلاق استقامة السلوك بوجه عام فى أداء الواجبات والبعد عن المنهيات ، حتى يكون الداعى قدوة للناس وحتى يجتذب قلوبهم اليه ويكسب ثقتهم به ، وحتى لا يشك الناس فى صدق ما يدعو اليه اذا كان هو غير عامل به ، والثقة والمحبة من أقوى عوامل النجاح .

ومن الأخلاق اللازمة للدعاة اذا كانوا فى مكان واحد الاتفاق وعدم الاختلاف ، وهذا أمر له أهميته البالغة ولعل مما يعين عليه هو الاخلاص للواجب ورعاية المصلحة العامة ، واطراح الأهواء الشخصية والأغراض الخاصة ، فان الاختلاف بين الزملاء أكبر عوامل الهدم لجهودهم ، وأول ما ينزع الثقة منهم ، ويسىء إساءة الى الدعوة بعامة . ولهذا أكد النبى ﷺ على معاذ وزميله فى وصيته لهما أن يلتزما التعاون فقال « وتطاوعا ولا تختلفا » .

وما يشير الى أهمية الأخلاق فى الدعوة قوله تعالى: « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا

---

(١) رواه ابن ماجة .

وقال : إننى من المسلمين » (١) فمدار تفضيل الله للداعى هو العمل الصالح والاخلاص فيه والاستسلام له سبحانه .

وكانت أخلاق الدعاة الى الله فى الزمن الأول من الأسباب القوية فى سرعة انتشار الاسلام ، وتقبل الناس له كما شهد بذلك المؤرخون المنصفون وكل ذلك من هدى النبى ﷺ فى قوله وفعله الذى فسر معنى الحكمة فى الدعوة ، ويحضرنى الآن من ذلك موقفه من اليهودى الذى أراد امتحانه فى أخلاقه فنجح النبى وأسلم الرجل ، ذلك أن زيد بن سعنة قال : لم يبق من علامات النبوة شى إلا وقد عرفته فى وجه محمد حين نظرت اليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما : فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله ، فابتعت منه تمرا الى أجل ، فأعطيته الثمن ، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيت فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ثم قلت : ألا تقضينى يا محمد حقى ، فو الله إنكم يا بنى عبد المطلب مطل . فقال عمر : أى عدو الله أتقول لرسول الله ما أسمع ؟ فو الله لولا ما أحاذر فوته لضربت

(١) سورة فصلت : ٣٣

بسيفى رأسك . ورسول الله ﷺ ينظر الى عمر فى سكون وتؤدة وتبسم ، ثم قال : أنا وهو كنا أحوج الى غير ذلك منك يا عمر ، أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباع الاقتضاء اذهب يا عمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعا مكان ما رعته . ففعل ، فقلت يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت اليه إلا اثنتين لم أخبرهما يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما .

فقد خبرتهما ، فأشهدك أنى رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمدا نبيا (١) .

وروى أنه قال لعمر فى موقف آخر من مواقف الدعوة التى أغلظ فيها الأعرابى ، أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا ؟ وقد أسلم الأعرابى لهذه المعاملة وعاد الى قومه داعيا الى الاسلام (٢) .

ومن حسن أخلاق النبى أيضا فى الدعوة أن أعرابيا دخل المسجد فبال فيه ، فصاح الناس به مستنكرين عمله ، فقال لهم النبى ﷺ : « دعوه ولا تزرموه »

---

(١) رواه الطبرانى وابن حبان والحاكم .

(٢) رواه الدارقطنى والبيهقى والحاكم .

ـ لا تقطعوا عليه بوله ـ فلما فرغ دعا بدلو من ماء فصبه عليه (١) .

(ب) وحسن هيئة الداعى ، فى هندامه الجميل ومظهره الكريم وعدم التشويه المنفر ، له دخل كبير فى تقبل ما يدعو اليه ، وفى التفاف القلوب حوله ، وهذه طبيعة بشرية لا يشك فيها أحد ، ولذلك كان رسل الله بريئين من كل ما ينفر الناس ، فمهمتهم تأليفهم لا تنفيرهم ، وتقريبهم لا إبعادهم .

وإذا لم يكن للداعى نصيب فى الحسن الخلقى الجذاب فليكن ذلك بما يستطيعه من حسن الهندام ، وقد كان لرسول الله ﷺ حلة يلبسها للعيدين والجمعة ، كما ذكره ابن القيم (٢) ، وقال لأصحابه : « ما على أحدكم لو اشترى ، إن وجد سعة ، ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » (٣) .

ومما يدل على تأثير المظهر بوجه عام فى الدعوة ما ذكره « أرنولد » فى كتابه « تاريخ الدعوة » (٤) . إذ يقول: يتحدث سعيد بن الحسن أحد يهود الاسكندرية

---

(١) رواه مسلم .
(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ١٢١
(٣) رواه أبو داود وابن ماجة .
(٤) ص ٤٥٨

الذى اعتنق الاســــلام سنة ١٢٣٨ م ، عن مشهد صلاة الجمعة فى مسجد باعتباره عاملا حاسما فى تحوله الى الاسلام فيقول : وعندما دخلت المسجد ورأيت المسلمين يقفون صفوفا كأنهم الملائكة سمعت هاتفا يقول : هذه هى الجماعة التى أخبر الأنبياء بقدومها ، ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء استولى علىَّ شعور عميق من الرهبة ، ولما بدأت الصلاة أحسست بقوة تدفعنى الى النهوض ، لأن صفوف المسلمين بدت أمامى كأنها صــــفوف الملائكة التى يتجلى الله القـــدير فى سجداتهم وركعـــاتهم ، وأيقنت فى نفسى أنى خلقت لأكون مسلما .

وقال رينان : ما دخلت مسجدا قط دون أن تهزنى عاطفة حادة أو بعبارة أخرى ، دون أن يصيبنى أسف محقق على أننى لم أكن مسلما .

فالمظاهر الحسنة بوجه عام لهـــا أثرها الــكبير فى النفوس وبخاصة وسط قوم يحبون ذلك ، ولأمر ما أقر عمر رضى الله عنه ما رأى عليه معاوية بن أبى سفيان حين كان واليا على الشام ، ورأى ما فيه من المظاهر التى لا عهد للعرب بها ، لأنه عرفه أنه بين قوم يقدسون هذه المظاهر ، والذكى اللبق هو من عرف كيف يسيطر على القوم وبأى وسيلة ينجذبون اليه .

وبهذا تعرف أن إعداد الداعى علميا وخلقيا وفنيا له أثره الكبير فى نجاح الدعوة ، ولا بد لهذا من ترتيبات خاصة ودراسة معينة ، وتوجيهات فعالة واختيار موفق ، إن هذا الإعداد لا يكون بمثل التوجيهات العامة لفترة محدودة ، بل لا بد أن يستغرق سنين طويلة وبخاصة من أجل الاطمئنان على الناحية الفنية والخلقية ، إن بعث واحد فيه هذه المواصفات كاملة خير من ألف ينقصهم هذا الإعداد ، إن الإرساليات الدينية فى أوربا لها معاهدها ومؤسساتها الخاصة يربى فيها الدعاة على نظام دقيق ، وبخاصة من الناحية الخلقية ، وقد يكون من الأوفق التفكير فى إنشاء معاهد لتخريج الدعاة تكون مناهجها متناسبة مع مهمتهم ، ولا يلحق بها إلا المعروفون بالملاحظة والتجربة الدقيقة أنهم ذوو أخلاق حسنة ترشحهم للقيام بهذه المهمة النبيلة .

ويعجبنى فى هذا المقام حديث للمرحوم الشيخ المراغى فى جريدة الدستور سنة ١٩٣٨ جاء فيه :

ومن لوازم الداعى أن يكون شجاعا صادقا قوى الإيمان بما يدعو اليه ، يرى فى الإقدام لذة وحقا للنفس الخيرة ، يؤديه احتسابا لله لا على أنه مكلف به يؤديه للأجر وزيادة الدرجات والمرتبات ، ومن حق الداعى

أن يكون بصيرا بالوسط الذى يعيش فيه ، خبيرا بأحوال النفوس ، واسع الحيلة فى التنقل من طريق الى طريق، يقصد الهداية المطلوبة من طريقها النافع .

وليس أفعل فى النفوس من جلال تكسبه التقوى وملازمة حدود الله ، ومن جمال يلقيه العلم الناضج على صاحبه ، ومن هيبة يوجدها الإعراض عن الدنيا وعدم الحرص عليها .

وقد شاهدنا فقراء ليس لهم جاه رسمى ولا عزة عصبية يهابهم أصحاب المقامات الرفيعة والأموال المكنوزة ، وينكمشون أمام هيبتهم التى بسطتها التقوى وزانهم بها العزيز الحكيم .

خامسا : لا بد أن تكون هناك حكمة فى الدعوة ، أى تخطيط دقيق يتناول أسلوبها وأغراضها ومعانيها وكل ما يتصل بها ، وأحسن تخطيط ما كان مستوحى من القرآن الكريم والسنة وما يضاف اليهما من التجارب والخبرات النابعة من وحى الظروف والأحداث ، قال تعالى : « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » (١) .

فالدعوة على بصيرة أى على يقين وإيمان ، أو على علم وهدى ، وهذا العلم الذى ينير طريق الدعوة مبين

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨

فى قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١) • ولا أطيل عليك فى ذكر ما قاله المفسرون فى هذه الآية ، وعدم اتفاقهم على رأى فى معنى الحكمة وأذكر لك ما أميل اليه من هذه الآراء •

يبدو أن الحكمة هنا هى العقل والتفكير السليم الذى يضع كل شىء موضعه ، وقد أمر الله نبيه باستعمالها ليكون أساس دعوته معقولا ومقبولا ، وليكون سلوكه مع الناس سلوكا مستقيما •

ولعل هذا المعنى هو المراد من الحكمة فى قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (٢) • لأنها آتية بعد أدلة التوحيد فى مجادلة ابراهيم مع النمرود ، وفى قصة عازر وابراهيم والبعث ، وضرب أمثلة محسوسة للدعوة الى الإنفاق الخالص لله بالسنابل والصفوان والمطر والجنة والإعصار ، والإنفاق من الطيبات ، لأننا لا نحب أن نأخذ الخبيث فكيف نعطيه لغيرنا ، والتفكير فى أن الشيطان يعد الفقر والله يعد الغنى ، فكل هذا مما يلفت النظر ويجول فيه الفكر ، ومن اهتم بهذا النوع

---

(١) سورة النحل : ١٢٥

(٢) سورة البقرة : ٢٦٩

فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، ولعل الحكمة بهذا المعنى هى منة الله على داود فى قوله : « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » (١).

فالحكمة أن تكون الفكرة سليمة والآداء جميلا ، فهى تشمل المعنى والأسلوب ، ثم إن المراد بالموعظة الحسنة أنيكون الترغيب فى الخير والترهيب من الشر بأسلوب عفيف لا فحش فيه ولا سباب مثلا ، فإن مثل هذه الأساليب الخشنة يحدث عكس المطلوب ، قال تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » (٢) .

وكان هذا الأسلوب بمكة عندما كان يواجه الرسول بدعوته العقائد الضالة والعادات الفاسدة ، ويقوم وحده بهذه الدعوة ، والمجادلة هى المخاصمة فلتكن بالصيغة الحسنى ، فإن سبوك فكن حليما ؛ وإن آذوك فكن صبورا ، ولعل مما يشير الى ذلك قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن » (٣) . فاستعمل معهم طريق اللين والعفو فذلك أجدى وأنفع .

---

(١) ص ٢٠

(٢) سرة الأنعام : ١٠٨

(٣) سورة فصلت : ٣٤

فالأسلوب الحكيم فى الدعوة له مظاهر متعـــددة وألوان مختلفة ، وقد يصلح لون فى بلد ولا يصلح فى آخر ، وقد ينفع أحدها فى عصر ويضر فى عصر آخر ، ومن واقع هدى الاسلام فى القرآن والسنة ، ومن تجارب المختصين فى الحياة أذكر هنا بعض مظاهر الحـكمة فى تبليغ الدعوة :

١ ـ من الحكمة عند اقتلاع عقيدة باطلة أو عادة فاسدة ، أو نقد وضع معين ، ألا يوجه العمل الى ذلك بطريق مباشر ، بل يتخذ له طريق لا يثير معارضة أو يوقد نار فتنة ، فإن الموروثات وبخاصة منها المقدسات الدينية ليس من السهل تحويل الانسان عنها ، فـكل إنسان معتز برأيه وعقيدته ، وكل جمـــاعة معتزة بمقدساتها ومعتدة بسلوكها ، وذلك أمــر طبيعى فى الجنس البشرى ، لأن مظهر الحرية والكرامة والعناد، يظهر بوضوح عند توجيه النقد الى العقيدة والسلوك، وقد تقدم نهى الله نبيه أن يسب الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم . وحسب الداعى الحكيم فى مواجهة الباطل بعد دراسة كل الظروف أن يحاول زحزحة الناس عن ثقتهم فى عقيدتهم وسلوكهم وبطريق غير مباشر ، ولعل مما يفيد فى هذا المجال :

(أ) توجيه الأنظار الى نواحى الشر والفســـاد فى عقيدة من العقائد ، أو نمط من السلوك يشبه ما يريد أن يغيره الداعى ، ثم يترك الفرصة للعقل يفكر ويقدر ، فقد ينتبه بنفسه الى مواطن الشر فيحاول باختياره أن يصلح من شأنه ، إن الله سبحانه وهو يوجه أنظار المشركين الى فساد اشراكهم بالله مخلوقات لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى من الحق شيئا ، عدد عليهم نعمه الكثيرة وبين أنه وحده خالقها والمتفضل بها ، ولأنهم يعتقدون أنه وحده خالق كل شىء ، كما ورد فى قوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (١) . ولكنهم يشركون الأصنام معه فى العبادة ، لما حكى الله عنهم بقوله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » (٢) . قال الله بعد تعداد النعم فى أوائل سورة النحل : « أفمن يخـــلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » (٣) ؟

فإلقاء هذا الاستفهام الإنكارى يوجه أنظار المشركين للتفكير فيما هم عليه من عقيدة .

---

(١) سورة الزخرف : ٩

(٢) سورة الزمر : ٣

(٣) سورة النحل : ١٧

ومثله ما سلكه الاسلام فى تحريم الخمر ، وكان شربها متأصلا فى العرب ، لم يشأ أن يوجه اليهم النقد المباشر، ولكن بين لهم أنها من نعم الله عليهم فقال تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » (١) ، ولما سألوا : هل هى حرام ، اكتفى ببيان ما فيها من نفع وضر وأن الضر فيها أكبر ، وترك للعقل يفكر ويوازن ليدرك بنفسه أن ما كثر ضرره على نفعه جدير بتركه ، فالعمل الذى تفوق خسارته ربحه لا ينبغى أن يحرص العاقل عليه ، ولم يقطع الاسلام فيها برأى .

قال تعالى : يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما»(٢). حتى إذا أدركوا خطرها أخيرا بما وقع من خطأ فى الصلاة نتيجة السكر ، وبما حدث من شجار وسباب وتعد على الأموال وغيرها طلبوا بأنفسهم بيانا شافيا فيها ، فحرمت أولا قبل الصلاة « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٣) .

---

(١) سورة النحل : ٦٧
(٢) سورة البقرة : ٢١٩
(٣) سورة النساء : ٤٣

ثم حرمت بعد ذلك نهائيا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » ؟ [١] .

ومما يفيد أيضا فى هذا المجال الاهتمـام بعرض محاسن الاسلام إن كان يدعو اليه ، أو محاسن مبـدأ من المبادىء اذا كان المقصود بالدعوة هذا المبدأ ، دون أن يتعرض لذكر مساوىء نقيضه فليتركها ليدركها السامع بطريق المفهوم . وفى هذا العمل بناء من جانب الداعى وهدم للمبدأ الفاسد من جانب المدعو ، والبناء القوى اذا ظهر بصورة رائعة تداعى غيره أو قل شأنه على الأقل .

ويقول المثل الغربى : بدل أن تلعن الظلام أوقد شمعة ، ذلك أن لعن الظلام جهد ضائع لا يذهب به، ولكن الذى يذهبه هو عمل ايجابى فى مقابله ، وهو إضاءة الشمعة ، فذكر المحاسن لمبدأ يعطى فـرصة للمدعو أن يفكر فى مبدئه وقيمته بالنظر لمـا يراه

---

(١) سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١

ويسمعه ، وهناك يكون تحوله للمبدأ الجديد عن اقتناع دون إثارة شعور أو مضاعفات غير حميدة .

٢ - ومن الحكمة عرض التشريع مبسطا والعقيدة واضحة عند الدعوة الى الدخول فى الاسلام ، والحذر من تعقيد الأسلوب واستعمال الوسائل الصناعية الملتوية التى تشوه طبيعة الأشياء وتخرجها عن بساطتها الفطرية الى عمل مصنوع معقد .

والعقيدة الاسلامية مبسطة وواضحة لأنها قائمة على العقل ، وأدلتها منثورة فى الكون كله ، ألم تر الى الأعرابى عندما سئل عن وجود الله فقال : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟ . ولما سأل النبى أمة عن الله فأشارت الى السماء حكم بإيمانها .

إن بساطة الأعرابى فى الاستدلال على وجود الله لا تزيد عنها فلسفة « نيوتن » عالم القرن الثامن عشر (توفى ١٧٢٧م) عندما سئل عن وجود الخالق فقال : من الجلى الواضح أنه لا يوجد أى سبب طبيعى يمكن أن يعزى اليه توجيه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة وعلى مستوى واحد دون أن يحدث فيها أى تغيير يذكر . فمجرد النظر لهذا التدبير يشعر بوجوب وجود قدرة إلهية تحدثه .

فالعقيدة الاسلامية تنادى على نفسها بالصدق ولا تستعصى على الفهم . وكانت بساطتها سببا فى تقبل الناس لهـا ، يقول « أرنولد » : إن هـذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للايمان ، ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة ، وإنها لتدخل فى نطاق أحط دركات الفهم والفطنة ، ولما كانت خالية مـن المخارج والحيل النظرية اللاهوتية كان من الممكن أن يشرحها أى فرد ، حتى أقل الناس خبرة بالعبادات الدينية النظرية (١) . وقد تقدم لك ما ذكره «كيتانى» عن سر تحول أهل الشام الى الاسلام .

٣ - ومن الحكمة عند دعوة النـاس الى اعتنـاق الاسلام عدم التشدد فى أخذهم بمبادئه من أول الأمر، ومراعاة التساهل الى حـد ما حتى تألفهـا النفس الغريبة عنها وتتعودها ، وستنقاد اليها طواعية بعد ذلـك .

وقد رأينا فى وفد ثقيف أن النبى ﷺ قبل منهـم الشهادتين والصلاة ، وحط عنهم الزكاة والجهاد مؤقتا كطلبهم حتى يألفوهما .

ثم ذكر أنهم سيصدقون ويجاهدون من تلقاء أنفسهم وقد كان ذلك (٢) .

---

(١) تاريخ الدعوة ص ٤٥٤

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

وجاء رجل الى النبى ﷺ فقال بعد أن تعلم منه ما تعلم : علمنى رسول الله وكان فيما علمنى : « وحافظ على الصلوات الخمس » . قلت : إنها ساعات لى فيها أشغال ، فمر بأمر جامع إذا فعلته أجزأ عنى . فقال : حافظ على العصرين ؟ قال « صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها » (١) .

وكان هذا التخفيف من النبى بصفة مؤقتة حتى يتعود الرجل الصلاة . إن الذين يريدون للداخلين حديثا فى الاسلام أن يؤدوا مرة واحدة كل ما جاء فيه من تكاليف ، قوم لا يعرفون طبيعة البشر ولا منهج الدعوة ، إن سياسة التدرج فى حركة الإصلاح ، والبعد عن الطفرة يفسرها قول عمر بن عبد العزيز لابنه عندما لامه على ارجاء تنفيذ بعض ما يراه حقا ، أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيرفضوه جملة .

وقد كان الختان من الأمور التى خشيها المنبوذون فى الهند عندما دعوا الى الدخول فى الاسلام ، كما قررته البعثة الأزهرية الموفدة اليها سنة ١٩٣٦ ، فصدرت الفتوى بما أذهب مخاوفهم والدين يسر .

٤ - ومن الحكمة فى الدعوة القصد الى الرءوس

---

(١) رواه ابو داود عن عبد الله بن فضالة عن أبيه .

الكبيرة والشخصيات الهامة لأن استجابتها ستجـر وراءها استجابة الأتباع والبسطاء بتأثير عامل التقليد أو بحكم العلاقة بين الكبير والصغير والرئيس والمرءوس .

وكان بود النبى ﷺ أن يسلم كبار قومه ولكن الله أخبره أنهم لن يستجيبوا له الآن ، وسيدخلون فى الاسلام عندما تتهيأ الظروف ، وكان ذلك فى فتح مكة بعد إحدى وعشرين سنة من بدء الدعوة .

لقد كتب النبى الى الملوك والكبار رجاء أن يسلم أقوامهم بإسلامهم ، ولما عرض جمال الدين الاسلام على « تغلق تيمور خان » ملك « كشغر » (١٣٤٧ - ١٣٦٣ م) اقتنع به ثم قال له : لا أستطيع أن أهدى أتباعى الى الاسلام حتى يؤول الملك العام الى بعد توحيد الإمارات ، وقد كان ذلك ، فدعا الأمراء فقبلوا ، وطلب أحدهم مبارزة الداعى الى الاسلام لخادمه فقبل التحدى وانتصر فأسلم الأمير وأسلم فى ذلك المشهد مائة وستون ألفا ، وأصبح الدين الإسلامى منذ ذلك الوقت دين سكان الحضر فى الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء « جفطاى » (١) .

---

(١) تاريخ الدعوة لأرنولد ٢٦٧ ، ٢٦٨

فهداية رجل كبير تهدى مئات وألوفا من الأتباع ، والجهد فى مثل هذه الحالات جهد مثمر .

وكان من حيل المستعمرين فى حمل الشعب على مذهب أو سلوك معين أن يولوا أعوانهم المناصب الكبيرة حتى يقلدهم الأتباع والمرءوسون ويستجيبوا لتوجيهاتهم ، إما عن عقيدة ، وإما لمجرد المتابعة التى قد تتطور بمرور الزمن الى اعتقاد .

٥ ـ ومن الحكمة أن يكسب الداعى صداقة الكثيرين ممن تظن منهم المعارضة له أو عدم تيسير مهمته ، وأن يتفطن لمنافذ الشر التى تقف فى طريق دعوته فيسدها أو يتجنبها بطريقة سلمية لا تثير فتنة ، فالدعوة حرب ، والحرب خدعة لا بد فيها من التحايل البرىء لشق الطريق بأمان .

وهذه مداراة لا بأس بها ، ولنا فى قول رسول الله ﷺ فى شأن عيينة بن حصن الفزارى حين رآه مقبلا عليه « بئس أخو العشيرة » فلما جلس الرجل تطلق النبى فى وجهه وانبسط اليه ، ولما سألته عائشة عن سر هذا المسلك قال : « متى عهدتنى فاشا ، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره » (١) .

(١) رواه البخارى .

وقد قال العلماء : إن هذا السلوك مداراة بذلت فيها الدنيا لصلاح الدين أو الدنيا أو هما معا ، وهى مباحة وليست مداهنة يبذل فيها الدين لصلاح الدنيا فهى مذمومة (١) .

٦ - ومن الحكمة حسن اختيار الموضوع الذى يتحدث فيه الداعى ، أو المبدأ الذى تراد الدعوة اليه بوسيلة من الوسائل، فالموضوعات والمسائل تختلف من بلد الى بلد ومن زمن الى آخر ، وليكن الموضوع منتزعا من واقع البيئة وحكم الظروف ومتطلبات العصر ، لا ما يختاره الداعى حتى لو كان غير مناسب لمقتضى الحال . والنبى ﷺ كان إذا سأله سائل أجابه عن أهم الأمور التى تناسبه ، وإذا طلب منه وصية أوصى بما يصلح شأنه ، إن الموضوعات التى تناقش مثلا فى أوروبا غير التى تناقش فى وسط إفريقيا ، والموضوعات التى تثار فى البلاد الرأسمالية غير التى تثار فى البلاد الاشتراكية ، وما يصلح للبدو لا يصلح للحضر ، وهكذا . ومن أهم ما يعالج من موضوعات ما يأتى :

(أ) الرد على الشبه التى يثيرها المستشرقون والمبشرون وأصحاب النحل والمذاهب الهدامة ،

---

(١) المواهب للقسطلانى ج ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٢

والمتحررون الذين يميلون الى اللادينية ومن داروا فى فلكهم لنبين وجهة نظر الاسلام فيها .

فإذا كانت هناك شبه تطعن مثلا فى مبادىء الاسلام كعامل من عوامل النهضة والرقى ، وتربط بين تأخر المسلمين وبين مبادىء الدين . فعلينا أن نبين سلامة المبدأ من حيث ذاته ، ونبين السبب فى تأخر المسلمين عن غيرهم من الأمم ، وهى أسباب خارجة عن نفس التشريع ، فهى إما لسوء فهم للمبادىء أو جهل بها ، أو تعلق بغيرها والى جانب الرد على الشبه يجب أن نفيد من توجيهها الينا فنضع الحلول التى ترد عمليا على هذه الشبه بالتمسك بمبادىء الدين وتطبيقه تطبيقا صحيحا .

فمن الشبه مثلا ما يتعلق بالقرآن من ناحية جمعه وترتيبه وكتابته وقراءته ، ومن نسبته الى النبى وعدم نسبته الى الله ، كما أثار ذلك حديثا القس «ريكيه» فى محاضرة ألقاها بجنيف فى قاعة القديس بطرس . ومن الشبه منافاة بعض مبادىء الاسلام للمدنية كتحريم الربا ، وإباحة الطلاق ، وتعدد الزوجات ، فتجب العناية بالرد على هذه الشبه ، وتزويد العلماء بالثقافة الواسعة لإمكان مواجهة هذه الأباطيل .

(ب) ويجب تفسير حقائق الاسلام تفسيرا علميا عصريا يتصل بالثقافات الحاضرة ، ويوازن بينها وبين ما انتهت اليه هذه الأبحاث وقررته التجارب ، وشرح المفاهيم باللغة والروح التى تناسب العصر ووضع دائرة معارف إسلامية ذات دراسة عميقة على هذا الأساس لتكون مرجعا صادقا للراغبين فى المعرفة الدينية الصحيحة وسلاحا تدفع به الشبهات والشكوك.

إن الاسلام ما يزال بكرا من هذه الناحية ، لم يسبر غوره ولم يؤت على جميع حقائقه ، وما أكثرها ، والثقافات والحضارات فى تطور وتغير ، فإن كانت العصور الماضية أفادت من الاسلام وكتابه بما يلائمها وفسرته بما كان عندها من ثقافات ، فإننا الآن فى حاجة الى شروح وتفسيرات بلغة العصر وحاجته .

يقول (ولفرد كانتويل سميث) : كل الكتب والأحاديث التى تتصل بهذا الدين تتخذ موقف الدفاع وتهدف الى حماية ذمار الاسلام أكثر مما ترمى الى شرحه وفهمه ، وترمى الى دعمه ومظاهرته أكثر مما ترمى الى بيانه وكشفه ، وهذه الحقيقة فى تشعبها البعيد هى علة سوء التفاهم بين المسلمين والغربيين ، وهى السبب فى أن غير المسلمين يسيئون فهم الأفكار الاسلامية الحديثة .

والواقع أن كلا من الجانبين لم يدرك الموقف إدراكا تاما ، فالمسلمون يأخذون قضايا الدين بتسليم ولا يقبلون سواها ، على حين تجد الغربيين يؤمنون بالتفسير العقلى ، وهذه الطريقة التى يتبعها المسلمون فى تقبل دينهم تفسد تقدير الغربيين للاسلام الحديث وتقف حائلا أمام المسلم فى صراعه ضد الصعوبات الدينية الحديثة التى يواجهها .

ومع عدم تسليمنا بهذا الكلام على إطلاقه ، فإننا نريد أن لا ندع مجالا لمثل هذه الانتقادات ، فنفسر إسلامنا تفسيرا علميا حديثا يتناسب مع الثقافات الحاضرة ليعيش معها ويظهر سموه عليها .

(د) يجب تنقية الاسلام من كل دخيل عليه فى عقائده وعباداته وأخلاقه وسائر تشريعاته ، فإن هذا الدخيل يشوه جماله ويظهره بصورة ممسوخة أمام الأجانب ، تزهدهم فيه وتحملهم على توجيه الطعون اليه ، وإشاعة أنه دين لا يستطيع أن يقف أمام العقل والمنطق وحقائق العلم ، وبالتالى لا يتجاوب مع الحياة فى سننها الكونية الثابتة ومقرراتها الأكيدة .

ولعل من الخير أن يتجه الاصلاح الى الطوائف المتجرة بالدعوة الى الاسلام عن غير علم صحيح

بحقائقه ، إنهم يدخلون عليه كثيرا من الخرافات لاستمالة السذاج اليه ، فى الوقت الذى يباعدون بينه وبين العقلاء المتعطشين الى دين صحيح نظيف .

وإنصافا للحقيقة نقول : إن كثيرا من طلاب العلم الوافدين الى الأزهر من أطراف أفريقيا ووسطها التى انتشر الاسلام فيها بطريقة أولية ، يعودون بعد تخرجهم حاملين شعلة الاصلاح الى أقوامهم ويزيلون هذه الملصقات من جوهر الدين .

وكانت السلطات الاستعمارية تضطهد هؤلاء الطلاب الذين يفتحون عيون الأهالى على الحقيقة الاسلامية النقية ، محاولين إبقاء الناس على جهلهم وضلالهم حتى يضمنوا استمرار التسلط عليهم وسهولة انتزاعهم من هذا الدين المشوه .

كما يجب أن نتنبه الى خطر الطوائف التى نشأت فى المجتمع الاسلامى كالقاديانية والبهائية ، وبيان ضلال الأسس التى قامت عليها ، وتبرئة الاسلام مما شوهوا به جماله .

سادسا : لا بد أن تنشر الدعوة بكل الوسائل الممكنة التى أعرض منها ما يلى :

١ ـ ترجمة معانى القرآن ترجمة صحيحة بالقدر الممكن بعد وضع تفسير مبسط له لا يحمل اتجاهات معينة ، وستكون هذه الترجمة مصححة للترجمات المباشرة للقرآن التى تحمل كثيرا من الأخطاء ، على أن تنشر هذه الترجمة بعدة لغات هامة ، وإن لم تتيسر هذه الترجمة فلتوضع كتب مبسطة فى مبادىء الدين بلغات البلاد التى تحتاج الى هذا القدر المبسط لتعرف شيئا عن الاسلام فتؤمن به .

٢ ـ دعم الصحافة الاسلامية وتزويدها بالترجمات الهامة لمبادىء الدين ، والرد على الشبه الموجهة اليه، وتفسير حقائقه تفسيرا علميا عصريا ، وتعنى بأخبار العالم الاسلامى ، وتقدم الدراسات الكافية للإفادة منها فى مجال الدعوة ، وذلك كنشرة « فيدس » للأنباء التبشيرية التى تصدر أسبوعيا من مركز التبشير فى (روما) وتطبع بعدة لغات وترسل مجانا لكثير من الجهات .

٣ ـ يحسن أن تكون هناك إذاعة خاصة ذات برامج دينية تعنى بالموضوعات الهامة التى تصلح للبلاد المختلفة وتكون موجاتها موجهة بلون ثقافى الى المنطقة المناسبة لها ، باللغة التى تعرفها هذه المناطق ، على أن يكون الاشراف على هذه الاذاعة إشرافا دقيقا من

مختصين أمناء يخططون تخطيطا يتناسب مع الغرض الذى أنشئت من أجله .

على أن تكون إذاعة موحدة لتكون الفكرة المنبثة عنها واحدة ، فإن لم يمكن ذلك ، ينبغى أن تتولى الاذاعات المختلفة فى البلاد الاسلامية هذه المهمة ، فى برامج خاصة بها ، على أن يكون هناك جهاز تنسيق لها ، متفرع من الجهاز العام للدعوة الذى تقدم ذكره.

٤ ـ ينبغى أن تعقد لقاءات متكررة لرسم السياسة العليا للدعوة ، بعد تقديم تقارير وافية يستفاد منها فى وضع البرامج للمراحل المقبلة ، كما هو متبع فى مركز التبشير العالمى فى روما ، ولو اتخذ موسم الحج مثلا فرصة لعقد مؤتمر من هذا النوع لكان ذلك أيسر وأقل تكلفة وأدعى الى الاخلاص فى العمل الذى يجتمع المؤتمرون من أجله ـ وقد يكون من الأوفق أن تنبثق من مؤتمر مجمع البحوث لجنة تخطط للدعوة على ضوء التقارير الواردة والتجارب الواقعة .

٥ ـ أن تنشأ مراكز اسلامية للدعوة فى أنحاء العالم، تراقب عن كثب أفكار الناس عن الاسلام لتصحح الأخطاء ، وتظهر محاسنه ، على أن تعطى هذه المراكز إمكانيات وتسهيلات واسعة لمباشرة نشاطها،

فهى تعتبر محطات تقوية لإذاعة الهداية الاسلامية من مراكزها الإصلية فى البلاد الاسلامية ، ومنطلقا جديدا للدعوة والدعاة ينبثون منه فى الجهات المحيطة بها على أن تكون هذه المراكز وحدة شاملة ، أو صورة مصغرة للمراكز الكبرى الأصلية ، ففيها صحافة وكتب ومحاضرات ، ومدرسة لتعليم الدين واللغة وما الى ذلك من أنواع النشاط .

٦ ـ التوسع فى إرسال البعوث الى كافة أرجاء الدنيا بعد إعدادهم على النحو الذى تقدم ذكره .

٧ ـ التوسع فى المنهج وقبول الطلاب الوافدين من أطراف العالم لتلقى العلم فى المعاهد والجامعات الدينية فى البلاد الاسلامية لأن هؤلاء سيعودون الى بلادهم وهم دعاة للدين ، ويقومون بنشاط قد يكون أعظم من نشاط المبعوثين الموفدين الى هذه البلاد ، وذلك لأمور :

(ا) أنهم أعرف بلسان قومهم وعاداتهم وجميع أحوالهم ، وقد عرفنا أثر هذه المعرفة فى نجاح الدعوة .

(ب) عدم تكليف الجماعة الاسلامية أموال طائلة وإمكانيات كبيرة ، فالطالب سيعود الى بلده داعيا بتكاليف أقل كثيرا جدا من المبعوث وبجهد أقل .

(حـ) أنهم مستقرون فى بلادهم غير قلقين ، لا تصرفهم عن التفرغ للدعوة ارتباطات أخرى ولا عوامل ضاغطة من حنين الى وطن أو عدم ملاءمة جوه . أو غير ذلك مما يعرض للمبعوث المتغرب عن بلده المرتبط بروابط كثيرة ، وعامل الاستقرار له أهميته البالغة فى الدعوة.

٨ ـ لا بد أن تدبر الأموال اللازمة للقيام بهـذا النشاط العظيم ، والخبراء فى هذا المجال لهم آراؤهم ندع ذلك لخبرتهم وعامل المال من أهم العوامل ، إن لم يكن أهمها ، فى نجاح كل مشروع ، وبخاصة مثل هذا المشروع العظيم ، وهو جهاد فى سبيل الله ، رغب الاسلام فى بذل أقصى ما يستطاع فيه من مال وجهد ، فما كان الجهاد إلا لنشر الدعوة وتأمين طريقها وحماية الحريات ودعم أركان السلام ، ويا حبذا لو كان هناك صندوق عام يمول من كل الأقطار الاسلامية للجهاز الموحد الذى يشرف على الدعوة ، أو يا حبذا لو زيدت فى ميزانية كل دولة المبالـغ المرصدة لهـذا العمل الجليل .

٩ ـ وإذا كان كل مسلم يشعر بأنه مكلف بالدعوة الى الله بالقدر الذى يعرفه ويستطيعه ، فإن كل مسلم وجد بين جماعة غير مسلمين ، أو جماعـة مسلمين محتاجين الى التفقه فى الـدين يجب عليه أن يؤدى

واجب الدعوة فيهم بما يحتاجون اليه ، يستوى فى ذلك الطلاب الموفدون من البلاد الاسلامية للتعلم فى البلاد الأجنبية والخبراء والسفراء والملحقون والزائرون والتجار والسائحون وغيرهم من كل من يمكنه أن يدعو الى الله ٠

وإن للطرق الصوفية جهدا كبيرا فى نشر الدعوة فى أفريقيا وآسيا على ما علمت من عرضنا لحركة الدعوة، إلا أنه ينبغى أن توجه توجيها صالحا بإبعاد العناصر المتجرة بالدعوة ، وتنقية بعض أفكارها التى لا يوافق عليها الاسلام ، ولو أنها زودت بالعلماء الذين يصحبونها فى اجتماعاتها وتحركاتها لكان لها أثر عظيم فى نشر الاسلام الصحيح ٠

وينبغى التنبيه الى أن هناك بعض الأفراد ينتحلون صفة الدعاة يطوفون بالعالم الاسلامى وغيره ، لا يريدون بذلك إلا كسب العيش وليس لهم من العلم قدر يساعدهم على الدعوة الصحيحة ، وقد اتخذت إجراءات فى بعض البلاد الاسلامية لمنع أى أحد من أفرادها من السفر لنشر الدعوة إلا بعد تقرير من لجنة معتمدة من العلماء يثبت صلاحيته للدعوة ، والاسلام ينهى عن التصدى للدعوة بغير علم فذلك

كذب وافتراء على الله ورسوله وبالتالى صد عن سبيل الله لأنه يشوه جمال الدين ٠

سابعـــا :

من أهم ما يساعد على قبول الناس لدعوة الاسلام أن يكون العمل بالدين ومبادئه واقعا حيا فى المجتمع الاسلامى ، فالعمل بالدين أكبر دعاية له ، ولو أراد المسلمون أن يعرضوا على الأجانب هذا الدين على أنه الأنموذج الكامل لنظام الحياة لقيل لهم فى صراحة وبكل بساطة ٠

لو كان فيه خير لاتخذوه نظاما لحياتهم ، بل إنه سيقال لهم : لو كان الاسلام خيرا لسعد به معتنقوه ونهضوا ، ولكن واقع حياتهم يتناقض مع دعواهم ٠

وقد حدث أن « فلاديمير » ملك روسيا أراد أن يبحث عن دين غير الوثنية التى كان يدين بها ، فانتهز دعاة كل دين الفرصة ليدخلوه فى دينهم ، فلما حاول اليهود أن يهودوه ، وكانوا قد جاءوا اليه من بــلاد الخزر على بحر قزوين ، سأل عنهم وعن تاريخهم فعلم أن الله شتت شملهم ، وأبعدهم عن بلدهم بيت المقـدس ، فقال لهم : لقد بؤتم بلعنة الله ومع ذلك تريدون أن

تعلموا غيركم ؟ اذهبوا فنحن لا نريد أن نشرد كما شردتم .

إن تطبيق المسلمين لمبادىء الدين تعطيهم شخصية مستقلة ومدعمة الاستقلال وعميقة الجذور ، يأمنون معها أن تؤثر عليهم التيارات الفكرية والمذاهب المختلفة التى يعج بها المحيط الدولى ، ويستحقون بجدارة أن يكونوا مصدرين لمبادىء الحق والخير ، لا مستوردين لها ، والاسلام غنى بكل أسباب السعادة لا يجمل بالمسلمين أن يتركوه الى نظم أخرى وقد أثبت واقع التاريخ الاسلامى فى عصوره الزاهرة أن الاسلام أعظم نظام لسعادة الجنس البشرى ، وشهد بهذه الحقيقة كبار المنصفين من الباحثين والكتاب الغربيين ، فلا ينبغى أن يزهد المسلمون فى إسلامهم ، ويعرضوه على غيرهم من الأمم ، كأنه عملة قديمة لم تعد لها قيمتها أو متاع قديم لا يصلح للحياة الجديدة نريد أن نبيعه لغيرنا .

خـــــاتمة

وبعد فهذا عرض سريع للدين العالمى وهو الاسلام، وبيان موجز لمنهج الدعوة اليه ، يجب علينا أن نبلغه للناس فإن أكثرهم لا يعرفون مبادئه الحقة ، ولـم يفهموها على وجهها الصحيح واذا كان الجهل بهـا متفشيا فى الأوساط الاسلامية فمن باب أولى من هـم بعيدون عن الاسلام ولا يصلهم منه إلا معلومات ناقصة أو مشوهة .

إن فى الناس فراغا روحيا وقلقا نفسيا فى هذه الأيام بعد كثرة الحروب ومخلفاتها المؤلمة ، وبعد الصراع المادى والتنافس المسعور على الغلب والنفوذ الذى وقع فريسته كثير من المستضعفين ، وليس إلا الـدين سكنا لنفوسهم وطمأنينـة الى قلوبهـم ، وشرحـا لصدورهم بالأمل فى تفريج الـكرب وتحول الحال ، فلتكن هديتنا الى هـذه النفوس القلقة والأعصـاب المتوترة غذاء روحيا تسكن به نفوسهم وتطمئن ، نبلغه لهم نقيا صافيا خالصا ، حلوا عذبا ، مشرقا لامعا .

إن فى العالم تيارات وأفكارا متضاربة تحـاول أن تطغى على الأديان عامة ، ويخشى منها على المسلمين

أن يفتنوا بها عن دينهم ، فالواجب علينا إبراز قوة الاسلام وعظمته ومتانة نظامه الروحى والاجتماعى لتحصين المسلمين ومقاومة هذا الغزو الجارف للآراء والمذاهب المتطرفة .

لا ينبغى أن نقف مكتوفى الأيدى أمام الهجمات التى توجه الى الاسـلام ، ولا موقف المتفرج من حركات التبشير ونشاط الدعوة الى الأديان التى لا تملك من عوامل القوة الذاتية ما يملكه الاسلام .

إن العدو يبدى مخاوفه الشديدة من الاسلام ، لأنه يدعو الى وحدة اسلامية ليس من صالح الاستعمار أن توجد لأنها تعرقل خططه الاستغلالية للشعوب . وهو يخشى أشد الخشية من نشاط الأزهـر الشريف بالذات فى ميدان الدعوة الاسلامية ، فقد كتب المختص بالبحث عن الأديان فى مجلة « لايف » يقول : إن الاسلام الى زمن متأخر لم يكن له جماعات منظمـة للتبشير ، لأن هذا الدين الذى جعل المسلم فى غنى عن الوساطة بينه وبين ربه ، قد جعله كذلك واعيـا الى دينه حيث كان ، وإن لم تكن له جماعة ينتمى اليها ، ويتقيد بنظامها لنشر الدعوة ، إلا أن الدلائل تشير الى عناية حديثة من جانب المسلمين بأنظمة التبشير ،

وقد أصبح الجامع الأزهر ، ذلك المعقل الثقافى الـذى صمد للتيارات الغربية ، ينشط الآن لتدريب فئة قليلة من أبنائه كل سنة للعمل فى هذا الميدان (١) .

فلنحث الخطا فى طريق الدعوة الى هذا الدين الذى قال الله فيه : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » (٢) وقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٣) .

وليبق الأزهر منارا للدعوة الاسلامية العالمية ومستعينا بالله فى أداء رسالته ، فهو نعم المولى ونعم النصير ،،،

---

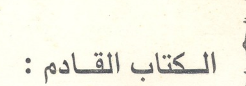
(١) مجلة الأزهر مجلد ٣٢ ص ٦٤٠
(٢) سورة آل عمران : ٨٥
(٣) سورة التوبة : ٣٣

الفـــــهرس

مطبعة الأزهــر

١٩٨٨/٢/٧٠٠٠

رقم الإيداع ١٩٨٨/٢٥٣١



الكتاب القادم :

المخدرات

فى رأى الإسلام

تأليف

الدكتور حامد جامع

عقيد محمد فتحى عيد

مطابع الأ

الثمن ١٠٠ قرش